دراسات

في فقه اللغة

تأليف

الدكتور صبحي الصالح

أستاذ فقه اللغة والإسلاميات
في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١١)

فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com

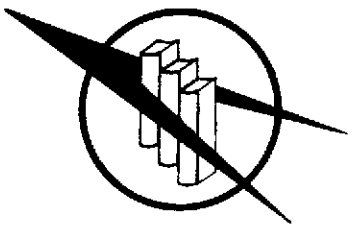

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠

الطبعة السادسة عشرة

أيار/مايو ٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

في الطبعة الثالثة

●

حين صدرت عن «مطبعة جامعة دمشق» الطبعة الأولى لهذا الكتاب ظننت أنْ سيطول عليه الأمد قبل أن يشقّ طريقه إلى كليات العالم العربي ومعاهده العلمية العالية ، على الرغم من استيفائه أهم المناهج المقررة لتدريس «فقه اللغة» على المستوى الجامعي ، ولم يكن يطوف بخلدي آنذاك أن تنفد هذه «الدراسات» بعد أشهر معدودة من تاريخ صدورها: فعهدُنا بالمؤلفات العلمية الرصينة أن يتراكم عليها الغبار قبل أن تحظى بشيء من اهتمام القراء !

ولو سارعت إلى تلبية رغبات الزملاء من العلماء الباحثين والأساتذة الجامعيين لصدرت حينئذ الطبعة الثانية خلال العام الذي ظهرت فيه الطبعة الأولى ، فقد أحسن هؤلاء الظن بالكتاب ، وعدّوه أجود ما ألّف في بابه ، وبذلوا له من الدعاوة فوق ما يستحق ، وأغراني كثير منهم في بيروت ودمشق وبغداد بإعادة نشره في أقرب فرصة ممكنة .

والآن أرى لزاماً عليّ — وقد منّ الله عليّ بهذه الطبعة الثالثة — أن

أنقح في هذه «الدراسات» ما تنبهت إليه بنفسي وما نبهني إليه الأصدقاء، وأن أزيدها بحثين بدا لي أنهما ينقصانها، أحدهما عن «الصيغ والأوزان»، أوضحت فيه ظاهرة الصياغة القالبية فيما تَسْبِكه اللغة وتبنيه، بعد تفصيل الحركة الاشتقاقية فيما تلده اللغة وتحييه.

أما الآخر فعرضت خلاله «للعربية في العصر الحديث». وفنّدت الشبهات التي يلقيها بعض الباحثين المتسرعين جُزافاً، كلما رموا الفصحى بالعقم، ووصموها بالتخلف عن مجاراة الحضارة في عصر العلم والنور. وقدّمت في هذا الفصل ما بدا لي مناسباً من الاقتراحات والتوصيات.

وكدت أغْني فصل «الأصوات العربية وثبات أصولها» بمباحث جديدة في علم الأصوات اللغوية، وأشبع القول في تطور الدلالة وعوامل هذا التطور، وأضيف بحثاً مسهباً عن نشأة الكتابة العربية ونمائها وطرق إصلاحها، ثم آثرت أن أُفْرِدَ لهذه الإضافات كتاباً مستقلاً مفصلاً، مكتفياً اليوم بما زدته عن «الصيغ والأوزان» و «العربية في العصر الحديث».

وإني لأسدي الشكر خالصاً لكل من عمل على نشر هذه «الدراسات» في الجامعات والكليات، وأخص بالذكر زملائي في كلّيتَي الآداب والشريعة في جامعتي دمشق وبغداد وكلية الآداب في الجامعة اللبنانية. وإلى هؤلاء الأصدقاء الغُيُر أهدي كتابي في طبعته الثالثة شاكراً لدار العلم للملايين إخراجه بأبهى حلة في ثوبه الجديد.

بيروت غرة ربيع الثاني ١٣٨٨

صبحي الصالح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

خلال السنوات المتعاقبات التي نهضت فيها بتدريس فقه اللغة ، كثيراً ما كان الطلاب في بغداد ثم في دمشق يسألونني سؤالاً متشابهاً أمسى على تعاقب الأيام « تقليدياً » : هل لنا من كتاب جامع في فقه اللغة نتخذه عدة لنا في الدراسة ، وإماماً هادياً إلى ينابيع العربية الصافية ؟

وكانت الحيرة تدركني كلما ألقي علي هذا السؤال ، فأنا لا أعرف كتاباً جامعاً في هذا العلم ، لا قديماً ولا حديثاً ، وإن في كل كتاب أنصح به لعيباً أو عيوباً ، وإن كانت مواطن الضعف تتفاوت بين كتاب وكتاب ، وبين باحث وآخر ، وبين جيل وجيل : ففي الكتب القديمة نقل أمين ، واستقصاء دقيق ، وعلم غزير ، تُفرض بها القواعد فرضاً ، ولا توصف بها الحقائق وصفاً ، وفي الكتب العصرية تجديد في مناهج البحث يغضّ من قيمته وَلوعُ الباحثين العرب المعاصرين بتقليد الأعاجم و « المستعجمين » في دراسة اللغات الإنسانية ...

ولم يكن ينقذني من هذه الحيرة إلا أن أقول للسائلين : من أفضل الكتب القديمة إن التمسّم كثرة النصوص وسعة المعلومات « المزهر » للسيوطي ، ومن أجود الكتب العصرية إن رغبتم في تبويب اللغة على المنهج الحديث « فقه اللغة » و « علم اللغة » للدكتور علي عبد الواحد وافي .

لكن الطالب الذكي لم يكن يخفى عليه أن جوابي إلى التهرب أقرب: فمن أراد أن يتذوق فقه اللغة علماً مستقلاً قائماً برأسه لن يجد طلبته في « المزهر » مهما يجمع من أبواب اللغة ، ولن يشفي غلته ما جمعه الدكتور وافي ونسقه منذ أكثر من عشرين عاماً ، وإن أطرى مجمع القاهرة يومئذ كتابيه .

إن كتباً حديثة أخرى تتناول أبحاثاً لغوية عميقة ، قد ظهرت في العواصم العربية ، ولا سيما في القاهرة ، فهلا أحلنا الدارسين على أحدها، وارتضيناه كتاباً جامعاً ، وإماماً هادياً ؟

تلك أبحاث الأستاذ المحقق الدكتور إبراهيم أنيس : أليس فيها كتاب واحد جامع مستوف للشروط ؟ إن يكُ في كتابه عن « اللهجات » أو في مؤلّفه عن « الأصوات اللغوية » أو عن « دلالة الألفاظ » أو عن « موسيقى الشعر » ضرب من الاختصاص في عرض لون معين من موضوعات اللغة ، فما بالنا لا نعدّ كتابه القيم « من أسرار اللغة » بحثاً في خصائص العربية ، والخصائص — كما يعلم كل لغوي — أهم مباحث فقه اللغة ؟

إنني — على إجلالي للدكتور إبراهيم أنيس ، وتطلعي إلى الإفادة من كتبه ، كما تنم عن ذلك « دراساتي » هذه — أرى في جُل مباحثه عيباً

لا أطيق الإغضاء عنه أو السكوت عليه ، وأرجو مخلصاً أن يتداركه بنفسه في الطبعات المقبلة . وإن هذا العيب ليتمثل في تهاونه بأقوال المتقدمين ، وندرة عزوه الآراء إلى أصحابها ، واستخفافه بردّ الشواهد إلى مراجعها ومظانها ، كأنّ كتبه محاضرات عجلى لا مباحث مدروسة ، أو كأنها مجموعة ملاحظات : ليس فيها تحقيق للنصوص ، ونقد للوثائق ، وموازنة بين المذاهب ، **مع أن اللغة — ولا سيما العربية — لا تدرس إلا من خلال النصوص ، فهي أصوات تسمع ثم تحفظ ، ثم تنقد ، وهي بذلك** — كعلوم الدين — لا ينقل منها شيء بغير دليل يثبته ، أو رواية تشهد له ، أو برهان يقوم عليه .

ولو صبر الدكتور أنيس على كتبه هذه صبراً أجمل ، ومنحها وقتاً أطول ، ثم لمّ شتاتها بنفسه في كتاب واحد جامع منقح غني بالمصادر الأصلية الأساسية ، لأدى في هذا العصر أجل خدمة لعلماء العربية ، فما من شك في انطواء بحوثه على آراء أصيلة إن فاتها الصواب أحياناً لم تفتها الجراءة ، وإن أهملت فيها النصوص غالباً عوض إهمالها صلاحُ المنهج الذي أشهد بحرارة أنه دفع الدراسات اللغوية العربية إلى الأمام قروناً وأجيالاً .

وفي كتاب الزميل الفاضل الأستاذ محمد المبارك « **فقه اللغة** » الذي تم طبعه خلال هذا العام في مطبعة جامعة دمشق ، نظرات ثاقبة ، وآراء في العربية ناضجة حرصنا على الإفادة منها أيضاً في « دراساتنا » هذه ، لكنها لم تبرأ مما يؤخذ على مؤلفات الدكتور أنيس : فلقد يخيّل إلى القارئ أن الأستاذ المبارك لا يبالي بالنصوص القديمة كثيراً ، فما يذكرها إلا قليلاً ، ونادراً ما يعزوها في الحواشي إلى أصحابها ، مع أن الأستاذ

المبارك – كما يعلم إخوانه وصحبه – من أوثق الناس صلة بالقديم ، وحسبه فخراً أنه في هذا الباب تلميذ أبيه المرحوم العلامة عبد القادر المبارك . على أن الزميل الكريم قد أوضح في مطلع كتابه أنه « لم يعمد إلى حشد الشواهد الكثيرة من المصادر العربية القديمة ، ولم يأخذ منها إلا ما احتاج إليه للاستشهاد أو لبيان ما سبق إليه علماؤنا من نظرات نافذة أو إبداع في البحث » : فكان منه هذا أشبه بالاعتذار عما لم يحبه لنفسه من إغفال النصوص ، وكاد هذا منه يَشي بما آمن به في قرارة نفسه من وجوب الاستشهاد بتلك النصوص .

ولو وضعنا في ميزان النقد **مقدمة العلايلي لدراسة لغة العرب** لألفيناها – رغم تعاقب الأعوام عليها – ما تنفك تُغني المباحث اللغوية بمدد غير ممنون ، إلا أن العلايلي حاول أحياناً أن يجدد وهو في عالم خلقه لنفسه بمعزل عن القدامى والمحدثين ، فنمّ تجديده عن فكره الثاقب ، ونظره البعيد ، ولو تجافى عنه لسان العرب المبين !

أما كتاب الدكتور تمام حسان « **مناهج البحث في اللغة** » ، وكتابه الآخر « **اللغة بين المعيارية والوصفية** » ، فقد جاءا آيتين في الدقة والتقصي فيما صورا من المذاهب الحديثة في بحوث اللغة ، وإن فيهما لجهداً مشكوراً في رد طائفة من تلك المذاهب إلى مبتدعيها ، ومحاولة ناجحة أحياناً في المقارنة بين العربية واللغات الحية من خلال ما استحدث العلماء من مناهج ، ولكنّ في الكتابين عيباً أجسم من عيوب الكتب العصرية السابقة ، فكثيراً ما يُدخل الدكتور حسان الضيمَ على العربية وهو يطبق عليها ما أتقنه من المناهج الغربية ، ماسخاً بذلك أصوات العرب في رموز وطلاسم « استشراقية » فيها من عجمة الدخيل ما لا يطاق !

وقد كان سبقه إلى إدخال الضيم على العربية ، واستعجال المقارنة بينها وبين اللغات الحية ، جرجي زيدان في كتابه « **الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية** » وكان في زيدان عيب أقبح يتمثل في « سطحية » علمه بهذه الأمور — إن صح هذا التعبير — وفي تطفله على ميدان اللغة ، كما كان شأنه في أكثر المبادين ، فما من بحث إلا خاض فيه ، ولم يكن في واحد منها من أهليه ...

وكتيّب الأستاذ عبد المجيد عابدين « **المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية** » قد حوى — على إيجازه — آراء مستطرفة سديدة في أصول النحو التي هي في نظرنا أجدر أن تسمى أصول اللغة . ولكنها آراء منبثة متفرقة طال انتظارها لليد الرفيقة الأمينة التي تلم شعثها وتنسقها وتستخرج منها أكرم جواهرها .

ويطيب لي — بهذه المناسبة — أن أشيد بكتاب قيم للزميل الكبير الأستاذ سعيد الأفغاني سماه « **في أصول النحو** » ففي مباحثه الدقيقة عن القياس والاحتجاج والاشتقاق التفاتة رشيقة لطيفة أراد بها الزميل الجليل أن يسمو بدرس النحو من الفروع إلى الأصول ، وينتقل به من فرض القواعد إلى وصف الحقائق ، أو من عمل النحاة في أفقهم الضيق المحدود ، إلى عمل اللغويين في أفقهم الرحب الطليق . وليت الأستاذ الأفغاني استكمل دراسة أبواب اللغة كلها بهذا الأسلوب الفذ ، إذن لكان كتابه أجدر التصانيف العصرية أن يسمى « فقه العربية » .

ولا يسعنا في هذه « الدراسات » إلا أن نكبر جهود العاملين الخالدين في تنمية العربية ، كالشيخ عبد القادر المغربي في « **الاشتقاق والتعريب** » والأب أنستاس ماري الكرملي في « **نشوء العربية ونموها واكتهالها** » ،

والأب مرمرجي الدومينيكي في أبحاثه حول « الثنائية » في العربية والساميات ، والأستاذ عبد الله أمين في « **الاشتقاق** » ، والدكتور مصطفى جواد في تحقيقاته الدقيقة التي ذكر طرفاً منها في كتيبه « **المباحث اللغوية في العراق** » ، والأمير مصطفى الشهابي في « **المصطلحات العلمية** » وفي معجمه القيم للألفاظ الزراعية . ولكن هؤلاء العلماء الأعلام كانوا يتناولون بالدراسة بعض الموضوعات الخاصة ولم يتصدوا — فيما نعلم — لتأليف كتاب جامع مدروس في فقه اللغة ، أو ربما فكر بعضهم بذلك ، غير أننا لم نجد لهم في المكتبة العربية كتاباً مطبوعاً منشوراً [1] .

وإن في تفرق المباحث اللغوية على هذا النحو ، وقلة التأليف في موضوعها العام الشامل ، وتهاون أكثر المؤلفين فيها بأقوال المتقدمين ، وإدخال بعضهم الضيم على العربية فيما كتبوه ، ونكوص آخرين منهم عن مجاراة ما يجدّ كل يوم من ألوان البحث في فقه اللغة العام وفقه اللغة المقارن ، إن في هذا كله لما يهيب بالغيور على هذه اللغة الذي يريدها لتسابق اللغات الحية في مضمار الحضارة ، إلى الإدلاء بدلوه ، في وضع كتاب جامع يحاول به أن يلم شتات الآراء السديدة ، قديمة وحديثة ، حتى لتشتمل فصول الكتاب على أفضل ما يتمنى أستاذ فقه اللغة أو دارسه أو الناشيء فيه أن يجده من المباحث الأساسية الهامة .

---

١ إلا ما كان من اطلاعي اتفاقاً وعرضاً على مذكرات في (فقه اللغة) كان الدكتور مصطفى جواد قد أملاها على طلابه في كلية الشريعة ببغداد . ولما خلفته بتدريس هذه المادة بين سنتي ١٩٥٤ — ١٩٥٦ في الكلية المذكورة ، أمليت على الطلاب مذكراتي الخاصة التي كانت الأصول الأولى لكتابي هذا ؛ ثم أغنيت بعض فصولها منذ كلفت بهذه المادة في كلية الآداب بجامعة دمشق ابتداء من سنة ١٩٥٦ . بيد أنني في ذلك العام اشتركت والأستاذ المبارك في التدريس ، فكان من نصيبي التطبيق العملي في دراسة النصوص القديمة ، ونهض الأستاذ المبارك بالجانب النظري . ثم انفردت وحدي بتدريس فقه اللغة نظرياً وعملياً منذ سنة ١٩٥٧ حتى يومنا هذا .

ومن الغرور أن أزعم أني بكتابي هذا جئت أملأ ذاك الفراغ ، وأسد تلك الثغرات ، وأحقق أمنية الدارسين ، فما عانيت تدريس فقه اللغة إلا ست سنين ليست في حساب الزمن شيئاً مذكوراً ، ولكن الله وحده يعلم أي جهد بذلت ، وكأيٍّ من ليل سهرت ، وكم من كتاب قرأت ، حتى أخرجت **للناقدين قبل المادحين** « دراساتي » هذه في أسلوب علمي بسيط توخيت أن يكون بالغ الحيطة شديد الحذر ، لا يفرط ولا يفرّط ، ولا يبالغ ولا يقصر : ينقل من النصوص القديمة ويعزو كل نص إلى قائله، وينقب عن المخطوطات النفيسة ويستشهد بها ، ثم يوازن بينها ولا يقنع بالجمع والتنسيق ، ويقبس من آراء المحدثين ، شرقيين وغربيين ، ومستشرقين ومستعجمين ، ثم يمحص آراءهم ويزنها بميزان النقد النزيه الدقيق .

وإن من ذكرت أسماءهم آنفاً من المؤلفين والعلماء ليجنون الآن معي كلهم ثمار هذا الكتاب ، فإن تكُ ثماراً يانعة طيبة ، فبهم طابت ، ومنهم أينعت ، ولأردنّ إليهم كل رأي مبتكر أخذته عنهم ، وكل فكرة أصيلة اقتبستها منهم :

ففي فصل الاشتقاق أعجبت بتفرقة الدكتور إبراهيم أنيس بين الدلالة المكتسبة المتطورة والدلالة الوضعية الأصلية . وعن الأستاذ المبارك اقتبست فكرة ثبات الأصوات في العربية . ومع الدكتور تمام حسان سرت أشواطاً في الدعوة إلى المنهج الاستقرائي الوصفي في أبحاث اللغة . ومع عبد المجيد عابدين ناديت بدراسة النحو العربي في ضوء اللغات السامية . ومن الأبوين أنستاس الكرملي ومرمرجي الدومينيكي أخذت القول بالثنائية التاريخية في اللفظ العربي . وعلى هدى أسطر قليلة جامعة للأستاذ سعيد الأفغاني

بنيت فكرة الانتقال من الثنائية التاريخية إلى الثنائية المعجمية [1] . وتابعت الشيخ المغربي على رأيه في تنزيل المعرّب منزلة العربي . وأيدت عبد الله أمين في اشتقاق العرب الفصحاء من الجواهر قبل المصادر . ومضيت مع الدكتور مصطفى جواد أقيّد النحت بالضرورة القصوى . وأخذت عن الأمير مصطفى الشهابي شروط النقل والتعريب لمصطلحات العلوم والفنون .

ومع أن هذه الآراء ليست وقفاً على أولئك العلماء المحققين ، إذ يجدها الباحث في مظانها الكثيرة ، قديمة وحديثة ، آثرنا أن ننسبها إلى مستنبطيها قبلنا لأن الأمانة العلمية تفرض علينا إبراز ما لهؤلاء من فضل طوّقوا به جيد العرب والعربية !

وبين هذه الغمرة من النظرات العلمية الجديدة المبتكرة ، جُلنا على استحياء جولات متواضعة قطعنا مراحلها الأولى على هدى أولئك العلماء ، ثم وجدنا أنفسنا بغتةً تلقاء الينبوع الصافي : ينبوع هذه اللغة ، فغرفنا منه غرفاً ، وعببنا منه عباً ، وذقنا لديه من حلاوة العربية ما يظن الصوفي آنه ذاقه بعد رياضة روحية شاقة مضنية .

وما لنا ألا تقودنا خطانا إلى ينبوع العربية الصافي وقد سلكنا إليه صراطه المستقيم ؟

أليس الطريق الموصل إلى العربية مرسوم الخطوط ، محدد المعالم ، في

---

١ من المعلوم أن أكثر القائلين بثنائية اللفظ العربي قد أخذوا بها في مفهومها التاريخي محاكاة لطائفة من اللغويين الغربيين . لكن الأستاذ الافغاني أيد هذه الثنائية بنصوص معجمية ، وأشار إلى ذلك في « أصول النحو » . كما أنه فطن إلى مذهب ابن فارس في الاحتجاج للثنائية منذ عثر على مخطوطة « مقاييس اللغة » قبل أن ينشرها الاستاذ المحقق عبد السلام هارون بزمن غير قليل .

النصوص القديمة التي آورثنا إياها سلفنا الصالح ، وصانها من عبث الأيدي علماؤنا الأبرار ؟ أو لم نعش في ظلال تلك النصوص ؟ أو لم نحمل طلابنا على أن يعيشوا في ظلالها آمنين ؟ ألم نطبق عملياً على كتب المتقدمين ما هدتنا إليه نظرات العلماء المحدثين ؟

فهل من عجب إذا سودت شواهد الأقدمين بياض كتابنا ، وهذبت فيه مناهج المحدثين مقاييس أسلافنا ، حتى جاء كالمرآة لملامح العربية في نشأتها وشبابها وكهولتها ، وجاء معه الكثير من القديم الأصيل ، والكثير من المبتكر الجديد !

ولن يفوتني في ختام هذه الكلمة أن أثني أطيب الثناء وأزكاه على إدارة مطبعة جامعة دمشق وموظفيها ومستخدميها وعمالها ، لما بذلوه جميعاً من عناية بهذا الكتاب حتى أخرجوه بهذه الحلة الجميلة ، وزينّوه بهذه الطباعة الرشيقة ، وحرصوا على الدقة في ضبط ما ورد فيه من النصوص القديمة ، فلم يقع فيه من سهو التطبيع إلا القليل النادر ، وهذا النادر نفسه صححناه في « التصويبات » ونرجو القارئ الكريم ألا يمضي في القراءة قبل أن يصحح ما ندّ من هذه الكلمات .

وبعد ... فإنا نسأل الله أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم ، ونرجو لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يجد فيه — بعد الفراغ من قراءته — تلك المرآة التي أردناها صافية ، تنطبع فيها ملامح الوجه العربي الأصيل ، وتنمحي منها قسمات الشعوبي الدخيل .

دمشق في ١٧ رمضان سنة ١٣٧٩ هـ — ١٢ آذار سنة ١٩٦٠ م

صبحي الصالح

الباب الأول

فقه اللغة

نشأته وتطوره

الفصل الأول

بين فقه اللغة وعلم اللغة

●

فقه اللغة وعلم اللغة

من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة ، لأن جُلَّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً. وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى ، حتى غدا العلماء يسردون البحوث اللغوية التي تُسلك عادةً في علم اللغة ثم يقولون : وفقه اللغة يشمل معظم البحوث السابقة ، ولا سيما إذا قورنت هذه البحوث بين لغتين أو لغات متعددة [1] .

وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة اللغوية ، من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما ، وجدناها تافهة لا

---

١ انظر على سبيل المثال « علم اللغة » لوافي ١٢ . وهذه الطريقة في الدراسة تسمى حينئذ الطريقة المقارنة méthode comparée . وراجع ما يتعلق بها في كتاب بيرو : Perrot, Linguistique. 72

وزن لها، فاسم علم اللغة عند الفرنجة «Linguistique ou science du Langage» أي العلم المختص بالكلام أو اللغة؛ واسم فقه اللغة عندهم «Philologie»: وهي كلمة مركبة من لفظين إغريقيين أحدهما Philos بمعنى الصديق، والثاني Logos بمعنى الخطبة أو الكلام، فكأن واضع التسمية لاحظ أنّ فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه.

وعلى هذا النحو كان العلماء في عصر إحياء العلوم يفهمون «فقه اللغة»، بل كان هذا الاسم إذا أطلقوه لا ينصرف إلا إلى دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية من حيث قواعدهما وتاريخ أدبهما ونقد نصوصهما، وأصبحنا اليوم نعد هذه الدراسة متحفية، ونسميها «فقه اللغة الاتباعي» «Philologie classique».

وربما لا يكون مفهوم علمائنا القدامى لـ «فقه اللغة» شديد الاختلاف عما أصبحنا نسميه «فقه اللغة الاتباعي» إلا في مواطن قليلة: فسنرى أنّ كثيراً من مباحث القوم في اللغة كان يتناول العربية الفصحى من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها، فقابلت الفصحى عندهم الإغريقية واللاتينية عند الفرنجة.

ومع أنّ دراساتنا هذه اشتملت على طائفة من المباحث خرجت عن النطاق الاتباعي التقليدي، آثرنا عدّها ملحقة بفقه اللغة، لأنها قُصرت على إبراز خصائص لغتنا العربية، فكانت أجدر أن تسمى بالاسم الشائع عند العرب حين ألّفوا في هذه الموضوعات. وإنه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين ألاّ يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئاً، وأن يعمموها على جميع البحوث اللغوية، لأن كل علم لشيء فهو فقه، فما أجدر هذه الدراسات جميعاً أن تسمّى فقهاً!

منهج فقه اللغة واستقلاله

وحين نأخذ بهذا الاصطلاح ، يسهل علينا أن نحدد نطاق فقه اللغة، سواء أتعلق بعرض المباحث القديمة عرضاً جديداً أم بقوانين علم اللغة في العصر الحديث ، فليس شرطاً لازماً أن يتحدث العالم اللغوي بعدة لغات، لأن كثيراً من علماء اللغة وفقهائها المشاهير لم يكونوا قادرين على الاستخدام العملي لأية لغة غير لغتهم القومية [1]. على أننا لا نجحد الثمرات التي يجنيها فقيه اللغة إذا أجاد تلك اللغات قراءة وكتابة وحديثاً ، فلا ريب أنها توطّىء لمباحثه ، وترفده بالدقة فيما يستخلصه من الأحكام .

وفي دراسة لغتنا العربية بخاصة أعظِم بالباحث إذا كان ملماً ببعض اللغات السامية كالسريانية والعبرية ! فبهذا الإلمام يلاحظ مواطن التقارب والاختلاف ، والأخذ والاقتباس .

ومنهج فقه اللغة في البحث مستقل كل الاستقلال عن مناهج العلوم الأخرى ، فيجب إقصاء التفكير الفلسفي عنه ، لئلا تجيء الأحكام فيه مطبوعة بالطابع الغيبي أو « ما وراء الطبيعة » ، أو المنطق الصوري . ولعل فقه اللغة في آثار علمائنا القدامى لم يأت بالكثير من الآراء الأصيلة لأنهم عدّوه جزءاً لا يتجزأ من التفكير الفلسفي القديم ، ولا سيما التفكير اليوناني الذي كان يرى أن « دراسة اللغة اليونانية في تراكيبها وأساليبها تصدق على جميع لغات العالم ، إذ لا مناص من أن تجري تلك اللغات على مقياس اليونانية [2] » .

وعندما نطرح جانباً كل أثر للمباحث التي لا تتعلق باللغة تعلقاً وثيقاً ، نستطيع أن نعرّف فقه اللغة بأنه « منهج للبحث استقرائي وصفي

---

١ قارن بـ Perrot, Linguistique, 6

٢ Bloomfield, Language, 6 وقارن بمناهج البحث في اللغة ١٤ .

يُعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أوالبعيدة، الشقيقة أو الأجنبية ، وخصائص أصواتها ، وأبنية مفرداتها وتراكيبها ، وعناصر لهجاتها ، وتطور دلالتها ، ومدى نمائها قراءة وكتابة » .

والبحوث الأساسية المذكورة في التعريف تتعلق بعلوم ثلاثة :

١ – التاريخ ، لمعرفة موطن اللغة الأول ، وروابط القربى بينهـا وبين اللغات الإنسانية الأخرى ، وتنوّع لهجاتها،وتطور خطها وكتابتها .

٢ – علم الصوت ، لبحث لهجات اللغة وأصواتها ، ومعرفة أنواع التطور الصوتي فيها.

٣ – علم الدلالة ، لبحث تطور ألفاظها وما تفيده من المعاني .

ولقد انحصرت مناهج العلماء في القرن التاسع عشر في دراسة اللغة من وجهة النظر التاريخية[١] ، فأعلن كبارهم : « أن علم اللغة تاريخي[٢] » . وأضاف كثير منهم إلى الناحية التاريخية معرفة التطور الذي أصاب اللغات في مختلف العصور .

أما القرن العشرون فقد طبع بطابع الوصفية،وتناول العلماء فيه اللغات بدراسة خصائصها الصوتية والتعبيرية،فكانت مباحثهم مجموعة مستقلة من المواد المتداخلة كالأصوات والتشكيلات والمعجمات والدلالات وما يمكن أن يسمى « علم الاجتماع اللغوي »[٣] .

في ضوء هذه الدراسة الوصفية ، انطلقوا يعالجون الأصوات الإنسانية بالبحث العميق ، فقارنوا بين الحروف وصفاتها ، ودرسوا أعضاء جهاز النطق وأخضعوا ذلك كله للملاحظة المباشرة . وسنرى أن العرب برزوا في ذلك منذ قرون في علمي التجويد والصرف .

---

١ Perrot, Linguistique, chap. III, p. 65

٢ Firth, Personality and language, in Society-sociological Review, vol. II, sect. two, 1950, p. 37.

٣ المصدر نفسه .

وبحثوا في اشتقاق الكلمات وأصولها ، وصيغها ، وأبنيتها ، وسماعها وقياسها .

ثم عنوا بدراسة معاني الألفاظ ودلالتها ملاحظين ما بينها وبين الاشتقاق من اتصال وثيق .

تطور التأليف في فقه اللغة عند العرب

إن التأليف في فقه اللغة قد مرّ بأدوار جديرة أن تسجل ، تقف الباحث على نشأة هذا العلم وتطوره . وإن من العسير استيعاب جميع الكتب المتعلقة بفقه اللغة تعلقاً غير مباشر، كالمصنفات النحوية والصرفية ، والمباحث البلاغية ، ووجوه القراءات المتواترة والشاذة . فلا بد لنا أن نقصر حديثنا على التآليف التي توفر أصحابها على دراسة ما يرتبط ارتباطاً قوياً بفقه اللغة علماً مستقلاً قائماً بنفسه ، لا يناقض التعريف الذي قدّمناه له .

لعل أقدم ما وصلنا من هذه الدراسات مباحث الأصمعي (أبي سعيد عبد الملك بن قُرَيْب) المتوفى سنة ٢١٥ هـ. عن الاشتقاق في العربية، وفي تسميتها بفقه اللغة كثير من التجوز ، لأنها لا تعدو ملاحظات عامة اتسع القول فيها فيما بعد ، وأضحت جزءاً هاماً من هذا العلم العظيم .

ثم أنشأ ابن جني (أبو الفتح عثمان) المتوفى سنة ٣٩٢ هـ. الفقيه اللغوي العبقري كتابه « الخصائص » وراح يناقش فيه بفكره الثاقب ومنطقه السليم أبحاثاً خطيرة في أصل اللغة ، أإلهام هي أم اصطلاح ، وفي مقاييس العربية ، واطرادها وشذوذها ، وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، والاشتقاق الأكبر ،وتركب اللغات ، واختلاف اللهجات . ومع أنّ « خصائص » ابن جني أجدر الكتب أن تسمى بفقه اللغة ، ضنّ عليها مؤلفها بهذا الاسم !

أما أحمد بن فارس (أبو الحسين القزويني) المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ـ وهو أستاذ الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ـ فقد خلع على مباحثه في نشأة العربية اسم « الصاحبي في فقه اللغة وسُنن العرب في كلامها »، وذهب إلى أن اللغة إلهام وتوقيف ، مستدلاً بقوله تعالى « وعلّم آدم الأسماء كلها » . على أنه ضمّن كتابه هذا بعض المباحث الهامة حقاً في فقه العربية ، كخصائص هذه اللغة ، واشتقاقها وقياسها ، ومترادفها ومجازها واشتراكها ونحتها ، واختلاف لغاتها ولهجاتها .

ونرى الثعالبي (أبا منصور عبد الملك بن محمد) المتوفى سنة ٤٢٩هـ. ينشيء بعد ذلك كتابه « فقه اللغة » الذي لا تجد اسمه إلا كالثوب الفضفاض عليه ، فإنه لم يضمنه إلا بعض المباحث القليلة التي يمكن أن تتعلق بهذا العلم ، كإيراده بعض الألفاظ العربية التي نسبها أئمة اللغة إلى الرومية ، أو بعض الأسماء القائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد ، أو الأسماء التي تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي ، أو الأسماء التي ماتت فارسيتها مع أن عربيتها ما تزال مستعملة محكية ؛ وهذه المباحث مبثوثة في الباب التاسع والعشرين من كتابه ، ولا تشغل أكثر من خمس عشرة صفحة .

أما ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي) المتوفى سنة ٤٥٨ هـ. فقد عرض في كتابه « المخصص » لبعض البحوث المتعلقة بنشأة اللغة العربية ، وبالترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق،وتعريب الألفاظ الأعجمية ونحو ذلك . والمخصص يقع في سبعة عشر جزءاً ، وهو حسن التنسيق دقيق .

ويتوفر الجواليقي (أبو منصور ، موهوب بن أحمد) ـ من علماء القرن السادس الهجري ـ بوجه خاص على دراسة « المعرّب من الكلام الأعجمي » . وكتابه مرتب على حروف المعجم. ويتلوه البشبيشي المتوفى سنة ٨٢٠ هـ. بكتابه « التذييل والتكميل،لما استعمل من اللفظ الدخيل».

ثم يجمع جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ – من علماء القرن التاسع الهجري – كتابه العظيم « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » من أكثر الكتب المتقدمة ، ويزيد عليها بعض الأبحاث الجديدة . ولعل كتابه – بتنوع أبوابه ، واتساع أغراضه – ألصق المؤلفات بفقه اللغة : ففيه تقرأ عن نشأة اللغات ، وتداخلها وتوافقها ، والمصنوع والفصيح ، والمستعمل والمهمل ، والحوشي والغريب ، والمعرّب والمولّد، والاشتقاق والاشتراك ، والترادف والتضاد ، والنحت ، والتصحيف ، والتحريف، والشوارد والنوادر ، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم ، ويقع في جزئين كبيرين .

وفي القرن الحادي عشر يعنى شهاب الدين الخفاجي خاصةً بالألفاظ الدخيلة على العربية، فيؤلف في ذلك كتابه « شفاء الغليل ، فيما ورد في كلام العرب من الدخيل » .

الفصل الثاني

فقه اللغة في كتبنا العربية القديمة

●

من وصف الحقائق إلى فرض القواعد

لقد انتهى فقهاء اللغة اليوم إلى أنّ «وظيفة اللغوي هي وصف الحقائق لا فرض القواعد[1] » ، وتلك وظيفة لم يفهمها على حقيقتها أحد مثلما فهمها وطبقها سلفنا الصالح من علمائنا الأولين ، إذ أنشأوا في فجر الإسلام يجمعون اللغة ورواياتها ، ويمحصون نصوصها كل التمحيص ، ويخضعونها لطرائق الاستقراء ، ليخرجوا منها بما يسمونه « سنن العرب في كلامها »[2] .

يمكننا القول إذن : إنّ منهج فقه اللغة عند العرب بدأ وصفياً استقرائياً ، تقرر فيه الوقائع في ضوء النصوص ، لا تفرض على أحد ولا

---

١ Arnold Smith, Gramm. and the use of Words, p. VIII

٢ وتجد الكثير من هذه السنن في الكتب اللغوية ، كالصاحبي والخصائص والمزهر معزوة غالباً إلى بعض العلماء الأولين .

يُقضى بها على أحد . ولكن هذا المنهج السليم سرعان مـا انحرف واعتوره الضعف ، منذ أن استبدل العرب القواعد بالحقائق ، والمعايير بالوقائع ، والإلزام المتسلط بالوصف الدقيق الأمين ،وبدأ الناس يسمعون من اللغويين مثل هذه اللهجة الجازمة الحاسمة : « وليس لنـا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها . ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن »[1] .

عوّلوا أول الأمر على سليقة الأعرابي ، وظنوا أنـه « إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحـد قبله به »[2] ، واقتنعوا بأن الأعراب « قد يلاحظون بالمُنّة والطباع ما لا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع »[3] ، ومع احتمالهم أنّ العربي الفصيح ينتقل لسانه[4] إذا فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المـدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها[5] ، ومـع رغبتهم حينئذ في رفض لغته ، وترك تلقي ما يرد عنه ، رأيناهم يجنحون إلى تقييد الباحثين بما قاسه أولئك الأعراب ، وقالوه ، فلا يجرؤ أحد على قياس ما لم يقيسوه .

وغلَوْا في سليقة الأعرابي غلواً فاحشاً حين نسبوا إليـه العجز عن نطق كلمة قرآنية بغير لهجته ولحنه ، فقرأ أعرابي بالحرم على أبي حاتم السجستاني : « طِيبي لهم وحسن مآب » فقال له : طُوبـى ، فقال : طيبي ، فعاد أبو حاتم يصلحها له مرة أخرى قائلاً : طوبـى ، فقال

---

١ الصاحبي ٣٣ .
٢ الخصائص ١/٤٢٤ .
٣ المزهر ٢/٣٠٩ .
٤ الخصائص ١/٤٢١ .
٥ نفسه ١/٤٠٥ .

الأعرابي : طبي ، فأصر أبو حاتم على إصلاحها بالواو ، والأعرابي يمتنع عن نطقها كما هي في القرآن ويستمر على لحنه ، طي ، طي ، فلم يؤثر فيه التلقين ، ولا ثنى طبعه عن اليماس الخفة هز ولا تمرين[1] .

وكان من أثر غلوهم هذا في سلائق الأعراب التي طُبعوا عليها ، أن ضيَّقوا على أنفسهم المنافذ والمسالك في أخذ اللغة وتلقيها إلا ممن تتوافر فيهم شروط هذا الطبع السليقي ، فانحصر الأخذ والتلقي في قيس وتميم وأسد وهُذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، عنهم نُقلت العربية ، وبهم اقتُدي ، وعليهم اتُّكل في الغريب ، وفي الإعراب ، والتصريف[2] .

وكان عليهم أن يحددوا موقفهم من قريش بوضوح ، فلم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها « أهل الله »[3] ، فرأوا أنها كانت « مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[4] .

هنا وقعوا على الخطإ المنهجي الأول : إذ جعلوا سنن العرب في كلامها ما سنَّته قريش أو تمثَّلته ، وأخضعوا مقاييسهم لما سمعوه من ألفاظها وتراكيبها ، ثم فرضوا على أنفسهم وعلى الناس هاتيك المقاييس ، فقال قائلهم : « وعلم مقاييس كلام العرب هو النحو ... »[5] .

ولو وقفوا عند هذا الحد لهان الأمر ، ولكنهم ألحقوا به خطأ منهجياً

---

١ الخصائص ١/٧٧ – ٧٨ .
٢ الاقتراح للسيوطي ١٩ .
٣ الصاحبي ٢٣ .
٤ نفسه ٢٣ أيضاً .
٥ الاقتراح للسيوطي ٦ .

آخر حين قطعوا مـــا بين العربية وأخواتها السامية من صلات ، فرأوا خصائص العربية من خلال الزاوية التي أعجبتهم ، لأنها أوسع اللغات وأشرفها وأفضلها [1] ؛ لا من خلال مقارنتها باللغات التي تربطها بها أواصر القربى. وأنكروا ان يكون لغير العرب من البيان أو الشعر أو الاستعارة ما للعرب : « بلى الشعر شعر العرب ، ديوانهم وحافظ مآثرهم، ومقيّد أحسابهم» [2] .

وخصائص العربيـــة نفسها لم تكتشف على حقيقتها فيما كتبوه ، إذ كان المؤلفون في هذه الخصائص يبحثون عنها متأثرين بالمنطق الأرسطي الذي لم تقف عدواه عند حد ، فكان لها أثر في علم الكلام والفقه ، مثلما كان لها أبلغ الآثار في دراسة اللغة [3] . والأدلة على هـــذا التأثر لا تحصى عدداً ، وأوضح مثال لذلك تعليلهم مقاييس العربية ، وأنها على وجه الحكمة كيف وقعت ، وأنها « أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين ... وذلك أنها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام . ووجوه الحكمة فيها خفية عنا غير بادية الصفحة لنا » [4] . لــذلك نادى ابن مضاء بسقوط كثير من هذه العلل التي لا يراد بها إلا إثبات الحكمة والمنطق التعليلي للعرب ، فقال : « ومما يجب أن يسقط من النحو العللُ الثواني والثوالث ، وذلك مثل سؤال السائل عـــن « زيد » من قولنا : « قام زيد » ، لم رفع ؟ فيقال : لأنه فاعل ، وكل فاعل مرفوع ، فيقول : ولم رفع الفاعل ؟ فالصواب أن يقال له : كذا نطقت العرب. ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر . ولا فرق بـين ذلك وبين من

---

١ الصاحبي ، باب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها ١٢ .

٢ الصاحبي ٤٣ . وقـد قال ابن فارس هذا في معرض رد الدعوى القـائلة إن للأعاجم شعراً ، فهو يؤكد أن العرب قرؤوا هـذا الشعر فوجدوه قليل الماء ، نزر الحلاوة ، غير مستقيم الوزن (ص ٤٢) .

٣ مناهج ١٧ — ٢٣ .

٤ الخصائص ١/ ٤٦ .

عرف أنَّ شيئاً ما حرام بالنص ، ولا يحتاج فيه إلى استنباط علـة ، لينقل حكمه إلى غيره ، فسأل لمَ حُرِّم ؟ فإن الجواب على ذلك غيرُ واجب على الفقيه »[1] .

وانتقلت عدوى المنطق الأرسطي أيضاً إلى العربية عند تطبيق المقولات العشر على أبواب النحو ومباحثه ، ومن المعلوم أن هذه المقولات هي : الجوهر والكم والكيف والزمان والمكان والإضافة والوضع والملك والفاعلية والقابلية[2] . ومن السهل أن نقارن بين الدراسات النحوية العربية وتلك المقولات إذا تجردنا في نظرتنا إلى بحوث بعض العلماء المعاصرين[3] .

أما مباحث القوم حول أصل اللغة ، إلهام هي أم اصطلاح ، فكانت ذات وجهين ، كلاهما يخرج عن المنهج اللغوي الوصفي ثم يتلوَّن باللون المناسب له ، أما أحدهما فغيبي « ميتافيزيقي » لا يخلو من سذاجـة ، كقول ابن فارس : « إن لغة العرب توقيف ، ودليل ذلك قوله جلَّ ثناؤه : « وعلَّم آدم الأسماءَ كلَّها » ، فكـان ابن عباس يقول : علَّمه الأسماء كلها ، وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابـة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ... »[4] . وأما الآخر فمنطقي في تعابيره واستنتاجاته ، لتأثره بالمناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ، ولا سيما إذا وصفت هذه المناسبة بأنها ذاتية موجبة لا يجوز أن تتخلف ، كما كان يرى عبَّاد بن سليمان الصيمري من المعتزلة[5] . ولا يبتعد عن هذا الميدان المنطقي تساؤل ابن جني عن اللغة : أمواضعة هي أم إلهام ؟[6]

---

١ الرد على النحاة ١٥١ .

٢ راجع مثلا حاشية العطار على شرح مقولات السجاعي .

٣ كالدكتور تمام حسان في كتابه القيم « مناهج البحث في اللغة » ولا سيما ص ١٨ وما بعدها .

٤ الصاحبي ٥ .

٥ المزهر ١/٤٧ ط/٣ .

٦ الخصائص ١/٣١ .

ففي المواضعة تبرز تلك المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله، ويتبين مدى التأثير المنطقي .

من هنا كان علينا أن نقصي جانباً جميع المباحث التي لا تتعلق بفقه اللغة تعلقاً وثيقاً ، فالمنطق الصوري وتعليلاته وأقيسته ، وما وراء الطبيعة من الغيبيات ، وفرض القواعد والمعايير كما تفرض أحكام القانون ، كل هذه ليست من المنهج اللغوي في شيء،فلا مناص من تجديد البحث في فقه اللغة إذا أردنا للغتنا الحياة والخلود .

الفصل الثالث

تجديد البحث في فقه اللغة

●

إن المنهج الصالح في دراسة فقه اللغة هو المنهج الاستقرائي الوصفي الذي يعترف بأن اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية كالعادات والتقاليد والأزياء ومرافق العيش ، بل هي بين الظواهر الاجتماعية كلها دليل نشاطها ، ووعاء تجاربها ، وبها تستقصى الملامح المميزة لكل مجتمع[1] .

لا شيء في الحياة يؤكد خصائص المجتمع ، ويبرزها على وجهها الحقيقي ، كاللغة المرنة المطواع التي تعبر بألفاظها الدقيقة الموحية عن حاجات البشر مهما تشعّب ، حتى تصبح الرمز الذي به يعرفون، والنسب الذي إليه ينتسبون[2] !

هذا المسلك الاجتماعي الذي لا تزال اللغة الإنسانية تسلكه في أرقى المجتمعات وأبسطها يسمح لنا بتوسيع المجال أمام العرف لتحديد مقاييس

---

١ Bloch and Tnager. Outline of linguistic Analysis, 5.

٢ Vendryes, Le Langage, 240-241.

اللغة ومعايير استعمالها ، فلا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ والتراكيب إلا بمقدار ما يتعارف المجتمع على أنها رموز للدلالة [١] .

« أليست هذه الألفاظ العامة التي نستعملها : كالشجرة ، والإنسان ، والبشرية ، والحرية ، أشبه بالرموز الرياضية ؟ أليست أشبه بالنقود التي يرمز بها إلى القيم ؟ أو لم تكن الرموز الرياضية والاقتصادية وسيلة للرقي في الميدانين الفكري والاقتصادي ؟ وكذلك اللغة ، فهي لم تقتصر على كونها معبرة عن التفكير ، بل كانت كذلك أداة نمائه وارتقائه ... » [٢].

لقد ظل العالم غافلاً عن تلك الرموز اللغوية حتى أواخر القرن السابع عشر ، فكان يحاول تأويل نشأة اللغات في سذاجة عجيبة ، حتى أوشك كثير من العلماء أن يجزموا بأن العبرية ، لغة الوحي ، هي لغة الإنسانية الأولى التي تشعبت منها لغات العالم المعروفة كلها [٣] . وكان على آباء الكنيسة أن يستندوا إلى الكتاب المقدس لتأييد هذا الرأي ، وقد وجدوه في سفر التكوين : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان. فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول » [٤] . وكذلك استند العرب من قبل الى آية قرآنية حين مال كثير منهم إلى أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح ، واضطر ابن جني إلى تأويل تلك الآية على غير ما فهمها عليه أشياخه ، فنسب إلى أكثر أهل النظر القول بأن أصل اللغة تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف ، ثم قال : « إلا أن أبا علي رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله ؛ واحتج بقوله سبحانه وتعالى: «وعلّم

---

١ Edward Sapir, Selected Writings, 549.

٢ فقه اللغة للأستاذ المبارك ص ٢ .

٣ Perrot, op. cit., 69.

٤ سفر التكوين ، الإصحاح الثاني ، الآية ١٩ وما يليها .

آدم الأسماء كلها » ، وهذا لا يتناوله موضع الخلاف ، وذلك انه قد يجوز أن تأويله : أقدر آدم على ان واضع عليها »[1] .

فإذا استثنينا رأي هذا العبقري ابن جني الذي سبق إلى القول بوضع اللغة ، وبأن وضعها لم يكن في وقت واحد ، بل على دفعات إذ تلاحق تابع منها بفارط[2] ، وأنها بدأت بصورتها الصوتية السمعيـــة فكان أصل اللغات كلها الأصوات المسموعة[3] ، واستثنينا أيضاً آراء من تابع ابن جني على هذا المذهب السديد،وجدنا أئمة العربية الباقين يكادون يطبقون على أن اللغة إلهـــام وتوقيف ، ويكادون لا يختلفون في تصورهم نشأة اللغة الإنسانية عما ظلّ سائداً في الغرب حتى اواخر القرن السابع عشر في الأوساط الكنَسية إلا في فرق ضئيل لا يؤبه له : أنّ لغة الوحي في نظر الإسلام كانت لغة القرآن ، على حين كانت في نظر آباء الكنيسة لغة الكتاب المقدس !

ومن أعجب صور التلاقي على صعيد الفكر أن العرب حين غلَوْا في لغتهم ، لأنها لغة الوحي ، فخصوها بالمناسبة الطبيعية بين ألفاظهـــا ومدلولاتها ، نافسهم الغربيون بتخصيص هذه المناسبة بالعبرية ، لأنهـــا لغة الوحي كذلك ، فهب كيشارد E. Guichard في مطلع القرن السابع عشر يبرز فكرة التناسق الصوتي في اللغات المتفرعة من العبرية[4] .

وكان لـ « ليبنز Leibniz» الفضل في مقاومة هذا التفكير الأسطوري الذي يبدأ بافتراض الرأي وينتهي سريعاً إلى التسليم به ، ثم إلى فرضـه

---

١ الخصائص ١/ ٩ .

٢ نفسه ١/ ٤٢٧ .

٣ نفسه ١/ ٤٤ – ٤٥ .

٤ وذلك في كتابه

Harmonie étymologique des langues descendues de l'hébraïque.

على الناس[1] ، ورأينا كثيراً من الباحثين – بعد ليبنز – ينكرون القول بأصل اللغات ، وينادون باستحالة الوصول إلى نتيجة قطعية تبين الصورة التي بدأ الإنسان يتكلم عليها : فهناك لغات تنتسب إلى تواريخ منهـا القديم ، ومنها الأقدم . ونحن نعرف بعض لغاتنا الحديثة في صور قديمة ترجع إلى أكثر من عشرين قرناً ، ولكن أقدم اللغات المعروفة، اللغات الأمهات كما تسمى أحياناً ، لا شيء فيها من البدائيـة ، ومهما اختلفت عن لغاتنا الحديثة فإنها لا تفيدنا علماً بالتغيرات التي طرأت على الكلام، ولا تدلنا على شيء من كيفية نشوئها »[2] .

لقد بات لزاماً علينا تجديد البحث في فقه اللغة ، فليس يعنينـا أن نتقصى أصل اللغة الغامض المجهول ، وليس علينا أن نعلل كل صوت لغوي أو رمز دلالي أنه على وجه الحكمـة كيف وقع ، وبأي لغة يُنطق ، بل يعنينا أن نتابع التطور اللغوي كيف حدث ؟ بعد إحصائه واستقرائه وملاحظته ومقارنـة بعض مظاهره ببعض ، وعلينا أن نبـدأ بجمع ما يمكننا من المعلومات عن اللغات الإنسانية المختلفة لنخرج أخيراً بالسنن العامة والقوانين الثابتة في علم اللغة العام ؛[3] وفي ضوئها نحـدّد خصائص لغتنا المدروسة بطريقة وصفية استقرائية ، كصنيعنا هنا في فقه اللغة العربية .

وإنّ هذه الطريقة الوصفية لتفرض علينا الاعتراف بحقيقـة لا يمكن نكرانها : وهي أنه لم يعثر قط على قبيلة لا لغة لها ، « وأنّ المتوحشين أنفسهم ليسوا بدائيين ، رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب

---

١ Perrot, op. cit., 69, 70.

٢ فندريس ، اللغة ٢٩ – ٣٠ .

٣ وهذا ما يسمى في نظر العلماء الانتقال من اللغات الى اللغة «Des langues au langage» وانظر فيه بوجه خاص A. Sommerfelt في أبحاثه Points de vue diacnronique, synchronique et panchronique en linguistique générale. (cf. Perrot, op. cit., 106)

الأحيان ، فهم يتكلمون أحياناً لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيداً ، ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة . فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها »[1] .

ومن يقرر هذه الحقيقة المتعلقة بلغات المتوحشين ، ولا يستبعد أن يكون لتلك اللغات خصائصها بساطةً أو تعقيداً ، وتطوراً أو جموداً ، لا يسعه أن يغض النظر في دراسة فقه العربية عن أخواتها من اللغات السامية ، لأنها — فضلاً على أنها كانت رموزاً لحضارات سابقة — لم تنفصم العرى الوثيقة التي ظلت آماداً طوالاً تربط بين بعضها وبعض في أغمض ظروف التاريخ .

وإن تعجب فعجبٌ تغافلُ علمائنا القدامى عن هذه القضية البديهية ، مع أن كثيراً منهم أشاروا في مواطن مختلفة إلى بعض اللغات السامية كالعبرية والسريانية ، بل عرف بعضهم اليهود والسريان واتصلوا بهم ، وأفادوا إفادة خاصة من نقل السريان فلسفة اليونان إلى العربية .

ولعل للعصبية العمياء دخلاً في هذه النظرة العجلى إلى الحقائق والأشياء ، فهم لا يريدون أن يقارنوا لغة القرآن بأية لغة أتيح لهم أن يلموا بها ، لأن لغة العرب بزعمهم أشرف اللغات ؛ ولو أرادوا ذلك ما استطاعوا إليه سبيلاً ، فما تيسّر للباحثين في العصور الوسطى أن يتناولوا اللغات بالدراسة التاريخية المقارنة ، وإنما ظهرت تلك الدراسات بعد عشرة قرون أو أكثر .

أنى لهم إذن أن يكتشفوا خصائص العربية على حقيقتها ؟

أنى لهم أن يروا رأي العين أن العربية هي « أشد اللغات السامية احتفاظاً بمقومات اللسان السامي الأول ، فقد نشأت غالباً في موطنها القديم ، لم تحلّ محل لغة أخرى غير سامية كما حدث لسائر اللغات السامية

[1] فندريس ٢٩ — ٣٠ .

النازحة ، وموقعها الجغرافي ساعدها على الاستقلال بعيدة عن المؤثرات الأجنبية ؟؟![1] » .

إنّ علينا الآن ـــ وقد ارتضينا الاستقراء والوصف طريقةً ومنهاجاً ـــ ألا نكتفي بتصوير وشائج القربى بين العربية والساميات ، بل نلم فوق ذلك بفصائل اللغات الإنسانية لنعرف السر في إطلاق السامية على لغتنا ، ثم نضيف إلى هذا كله لوناً من المقارنة بين بعض اللهجات العربية القديمة، لنصل منها آخر الأمر إلى لغتنا العربية الفصحى بخصائصها الفذة وأسلوبها المبين .

١ قارن بالنحو العربي على ضوء اللغات السامية ٣٠ .

البابُ الثاني

العربية

بين اخواتها السامية

الفَصْلُ الأول

أشهر فصائل اللغات[1]

•

لعل أفضل النظريات في تقسيم اللغات هي التي تعوّل على صلات القرابة اللغوية ، فتنشىء من كل مجموعة متماثلة أو متشابهة في الكلمات وقواعد البنية والتراكيب فصيلة من الفصائل تؤلف بينها غالباً روابط جغرافية وتاريخية واجتماعية .

وعلى هذا الأساس لاحظ العلماء مجموعتين هامتين متميزتين ، سموا إحداهما الفصيلة الهندية ـ الأوروبية Indo - Européenne والأخرى الحامية ـ السامية Chamito - Sémitiques ، وتنبهوا إلى صلات القرابة بين اللغات الداخلة تحت كل منهما على حدة ، وإلى الصفات المشتركة

---

١ ليس من شأننا في هذا الفصل التوسع والإسهاب ، إنما هي عجالة لبيان أبسط الضروريات التي لا بد منها في هذه البحوث . ومن أراد التوسع فعليه بكتاب Les langues du monde ومنه نقل وافي في (علم اللغة ١٧٩) المعلومات المفيدة عن فصائل اللغات .

بين الفصيلتين كلتيهما ، ثم جاء ماكس مولر Max Moller بتقسيمه الثلاثي للغات ، حين سمى طائفة من اللغات الأسيوية والأوروبية التي لا تدخل تحت الفصيلتين السابقتين باسم اصطلاحي هو الفصيلة الطورانية Touranienne . وإنما كان الاسم اصطلاحياً لأنّ أفراد الفصيلة الأخيرة متنوعة جداً ، ومتباعدة جداً ، وليس بينها روابط لغوية واضحة. وهذا ما دعا المحدثين من علماء اللغة إلى تقسيم ما بقي من اللغات الانسانية إلى تسع عشرة فصيلة ، تنفرد كل فصيلة منها بروابط من القرابة اللغوية في الأصول والقواعد والتراكيب،وبذلك أصبحت فصائل اللغات الانسانية إحدى وعشرين أهمها الأوليان ، والباقية ثانوية متفرقة في أنحاء مختلفة من العالم . ولا بد من كلمة عجلى حول الفصيلتين الهامتين .

(أ) الفصيلة الهندية – الأوروبية

وهي أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً ، والشعوب الناطقة بها جليلة الأثر في الحضارة الإنسانية الحديثة . ومن العسير تحديد موطنها الأصلي. فمن ذاهب إلى نشأتها في آسية الوسطى بمنطقة التركستان ، ومن قائل بنشأتها في المناطق الروسية بأوروبة الشرقية ، ومن زاعم أنها في مناطق بحر البلطيق .

وهي تشتمل على ثمان من طوائف اللغات :

١ – اللغات الآرية ، بفرعيها الهندي والإيراني .

٢ – اللغات اليونانية ، وتشمل اليونانية القديمة ، واليونانية الحديثة التي قامت على أنقاض القديمة في القرون السابقة للميلاد ، ولغة اليونان في العصر الحديث .

٣ – اللغات الإيطالية ، وأهم فروعها اللاتينية التي تشعبت منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية ولغة رومانية .

٤ ــ اللغات الجرمانية، وأهمها شعبتان : شعبة اللغات الجرمانية الغربية، وفيها الانجليزية ــ السكسونية، والانجليزية الحديثة ، والهولاندية والألمانية. وشعبة اللغات الجرمانية الشمالية وهي لغات الدانيمرك والسويد والنرويج .

٥ ــ اللغات السلافية ، وهي شعبتان صقلبية وبلطيقية : فمن الصقلبية الروسية ، والتشيكية ، والپولونية ، والبلغارية الحديثة . ومن البلطيقية الليتوانية ، والبروسية القديمة .

٦ ــ اللغات الأرمنية .

٧ ــ اللغات الألبانية .

٨ ــ اللغات الكلتية التي كان ينطق بها شعوب الكلت Les Celtes وقد غلبتها الآن اللغات الانجليزية والفرنسية والإسبانية ، وإن بقيت ظواهر منها في لهجات إيرلندا ومنطقة البريتون Bretagne غربي فرنسة .

(ب) الفصيلة الحامية ــ السامية

وليست المناطق التي تشغلها هذه الفصيلة شديدة الاتساع كالمناطق التي تشغلها الفصيلة الأولى (الهندية ــ الأوروبية) فلا يعدو ما تشغله بلاد العرب وشمال إفريقية وجزءاً من شرقي إفريقية ، غير أن مناطقها تكاد تشكل منطقة واحدة متماسكة الأجزاء ، مستقلة ليس فيها عنصر دخيل. وتلك مزية كبيرة من مزاياها . وهي ذات مجموعتين :

آ ــ مجموعة اللغات الحامية ، وفيها المصرية والبربرية والكوشيتية . وقد اصطلح على إدخالها في مجموعة واحدة ، مع أن صلات القرابة بينها ضعيفة ، ولذلك يعد بعضهم كل فرع منها مستقلاً برأسه على حدة .

واللغة المصرية تشمل المصرية القديمة والقبطية .

أما البربرية فهي لغة السكان الأصليين لشمال إفريقية (تونس ومراكش

والجزائر وطرابلس والصحراء والجزر المتاخمة لها) . وأهمها اللغة القبيلية Kabyle والتماشكية Temachek وهي لغة قبائل التوارج Touareg (الطوارق).

وأما الكوشيتية فهي لغة السكان الأصليين للقسم الشرقي من إفريقية، وبها يتكلم نحو ثلث سكان الحبشة . وهنالك مناطق في الحبشة تتكلم بلغة سامية .

ب ــ مجموعة اللغات السامية ، وسنتكلم عنها بتفصيل بعد قليل ، لأنّ لغتنا العربية تفرعت منها .

(ج) فصائل اللغات الانسانية الأخرى

أما بقية اللغات الإنسانية الأخرى فقد ذهبت جمعية علم اللغة بباريس إلى قسمتها إلى تسع عشرة فصيلة أهمها :

١ ــ فصيلة اللغات الطورانية ، كالتركية والمغولية والمنشورية ، وبها سمّى ماكس مولر جميع الفصائل الباقية على سبيل الاصطلاح الخاص .

٢ ــ فصيلة اللغات اليابانية .

٣ ــ فصيلة اللغات الصينية ــ التيبيتية (ومنها لغة سيام) .

٤ ــ فصيلة اللغات الكورية (لسكان شبه جزيرة كورية) .

٥ ــ فصيلة اللغات القوقازية (ويستثنى منها اللغات القوقازية السامية، والهندية الأوروبية) .

٦ ــ لغات الهنود الحمر في أمريكة ، وهم سكانها الأصليون .

٧ ــ لغات السودان وغانة ، وقد قسّمها العلامة Maurice Delafosse إلى ٤٣٥ لغة ترجع إلى ست عشرة شعبة أهمها الشعبة النيلية ، والشعبة النوبية ، والشعبة الاستوائية، والشعبة الكونغوية .

٨ ــ اللغات الملايوية البولينزية Malayo - Polynésiennes ومنها الأندونيسية والميلانيزية (جزر سليمان ، وسانت كروز ، وتوريس) ..

وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس Société de linguistique de Paris بحثاً موجزاً في دراسة هـذه الفصائـل التسع عشرة بإشراف الأستاذين Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen ، فجاء البحث في نحو ست مئة صفحة من القطع الكبير (من ١٥٣ — ٧١٣) ، وذلك في الكتـاب الضخم الشهير « لغات العالم » (Les langues du Monde) .

طريقة أخرى لتقسيم اللغات الى فصائل

هناك طريقة أخرى لا تعول في تقسيم اللغات على صلات القرابـة اللغوية ، بل تستند في هذه القسمة إلى قوانين التطور والارتقـاء المتعلقة بقواعد الصرف والتنظيم .

وأشهر نظرية في هذه الطريقـة هي نظرية العلامة شليجل Schlegel التي اتبعه عليها كثير من الباحثين .

واللغات في ضوء هذه النظرية ثلاث فصائل :

١) اللغات التحليلية Analytiques .

٢) اللغات الإلصاقية Agglomérantes .

٣) اللغات العازلة isolantes [١] .

ويرى أصحاب هذه النظرية أنّ اللغة الإنسانيـة نشأت عازلة ، ثم تطورت فأصبحت إلصاقية ، ثم ارتقت أخيراً إلى التحليلية .

آ) واللغة العازلة هي غير المتصرفة ؛ فبنية الكلمات فيها لا تتغير ، وأصولها لا تُلصق بها حروف زائدة لا قبلهـا ولا بعدها ، وليس بين أجزاء تراكيبها روابط وصلات . ويدخل في هذه اللغة الصينيـة وكثير من اللغات البدائية .

---

١ قارن بـ Perrot, op. cit., 109 .

ب) واللغة الإلصاقية هي لغة وصلية تمتاز بالسوابق Préfixes واللواحق Suffixes الـــتي تربط بالأصل فتغير معناه وعلاقته بما عداه من أجزاء التركيب ، وأشهر هذه اللغات اليابانية والتركية وبعض اللغات البدائية .

جـ) واللغة التحليلية هي المتصرفة التي تتغير أبنيتها بتغير المعاني وتحلّل أجزاؤها المترابطة فيما بينها بروابط تدل على علاقاتها . ومن هذه اللغات السامية ، وفي طليعتها العربية ، وأكثر اللغات الهندية ــ الأوروبية .

وأصحاب هذه النظرية يستدلون على مراحل التطور فيها بلغة الطفل ولغات الأمم البدائية ، ويرون أنّ مرحلة التصريف والتنظيم مرحلة متأخرة في اللغات الإنسانية . ولكنّ هذا خطأ، فجميع الظواهر (العزل والإلصاق والتصريف) موجودة في مختلف الألسنة ، ومن العسير أن تتجرد منها لغة من اللغات[1] .

* * *

وقد حاول كثير من الباحثين أن يقارنوا بين الفصيلتين الهامتـــين (السامية) و (الهندية الأوروبية) . والتوسع في هذا خارج عن نطاق بحثنا ؛ فسنكتفي بإشارة عابرة إلى خصائص اللغات السامية تمهيداً لبحث خصائص لغتنا العربية التي تفرعت عنها .

---

١ راجع علم اللغة لوافي ١٠٨ .

الفصل الثاني

لمحة تاريخية عن اللغات السامية

●

الساميون ومهدهم الأول

يطلق العلماء اليوم على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية – الآشورية لقب الساميين[1] . وكان العلامة الألماني شلوتزير Schlozer[2] أول من استخدم هذا اللقب في إطلاقه على تلك الشعوب ؛ وقد شاركه عالم ألماني آخر هو إيكهورن Eichhorn — في أواخر القرن الثامن عشر – بتسمية لغات هذه الشعوب « باللغات السامية[3] ». والتسمية لم تخترع اختراعاً ، فهي مقتبسة من الكتاب المقدس الذي ورد

---

١ وافي ، فقه اللغة ٢ .

٢ وذلك في تحقيقاته حول تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٧٨١ وانظر :
Eichhorns Reportorum, Bd 8 p. 161. وقارن بولفنسون ص ٢ .

٣ Die Semitischen Sprachen

فيه أن أبناء نوح هم سام وحام ويافث ، وأن القبائل والشعوب تكوّنت من سلالتهم[1] .

ويبدو أن اللغات السامية قبل تفرقها كانت ترجع إلى أصل واحد ، وتشكل شبه وحدة شعبية ، إلاّ أن من العسير جداً تعيين ذاك الأصل وتحديد هذه الوحدة، لأنّ المهد الأول للساميين ما يزال غامضاً مجهولاً ، رغم أبحاث العلماء الكثيرة الواسعة الآفاق[2] . وليس يعنينا هنا أن نعرض للآراء المتباينة بهذا الصدد ، بـــل نكتفي بالإشارة إلى أن إرنست رينان الفرنسي Ernest Renan [3] وبروكلمان الألماني BrocKelmann [4] يرجحان أن الموطن الأول للشعب السامي هو القسم الجنوبي الغربي من شبـــه الجزيرة العربية [5] .

وفي دائرة الدراسات السامية حظيت لغتنا العربية بكثير من العناية ، فكانت في نظر بعض الباحثين، وفي طليعتهم العلامة أولسهوزن Olshausen ، أقدم اللغات السامية [6] ، وإن كان كثير من فقهاء اللغة وعلماء الاستشراق يرفضون هذا الرأي ولا يستسيغونه .

واللغات السامية — بوجه عام — تشترك في عدد من الخصائص الدالة على وحدة أصلها ، فهي تمتاز عن سائر اللغات الأخرى بأن أصول كلماتها تتألف غالباً من ثلاثة أصوات ساكنة (ض ر ب) وان كان بعض العلماء المحدثين يجنح إلى ثنائية الأصول السامية ، كالأب مرمرجي الدمنيكي في

---

١ سفر التكوين ، الإصحاح ١٠ .

٢ ولفنسون ٤ .

٣ في كتابه : Histoire des langues sémitiques:

٤ في أبحاثه المشهورة Semitische Sprachwissenchaft

٥ قارن بواي ، فقه اللغة ٧ .

٦ انظر مقدمة كتابه عن العبرية فهو يذكر فيه أن العربية هي أقرب اللغات السامية إلى اللغةالسامية الأولى ، وقارن بولفنسون ٧ .

كتابه (هل العربية منطقية ؟ أبحاث ثنائية ألسنية)[1] . والقائلون بثلاثية الأصول السامية يردون الرباعي منها إلى الثلاثي ، فيردون دحرج مثلاً إلى دحر أو درج لما فيهما من معنى الإبعاد والدفع . واللغات السامية تمتاز في دلالتها على المعنى الأصلي باعتمادها على حروف المباني ، وفي تفرقتها بين المعاني المتكافئة باستخدامها حروف المعاني أو الحركات ، نحو لفظ (م ل ك) فهو يدل على معنى مشترك بين عدد من الكلمات التي تتألف من هذه الأصول الثلاثة، فمنه ملَكَ ، مُلِكَ مَلِكٌ مُلْكٌ ، مِلك ، الخ ...

شجرة اللغات السامية

وإذا أردنا أن نصف شجرة اللغات السامية لنرى كيف تفرعت عنها لغتنا العربية ، وكيف امتازت عن أخواتها بخصائص مستقلة ، وجدنا تلك اللغات في أصل نشأتها تنقسم إلى شرقية وغربية. فالشرقية هي اللغات البابلية — الآشورية (أو الأكادية كما يسميها المحدثون من فقهاء اللغة نسبة إلى بلاد أكاد Akkad) وكان الأقدمون يسمونها (الإسفينية أو المسمارية) لأن الناطقين بها أخذوا الخط المسماري ذا الزوايا écriture cunéiforme عن الشعب السومري حين تدفقوا إلى منطقته في القسم الجنوبي من بلاد العراق . ويُظن أن المتدفقين على تلك المنطقة كانوا من القبائل العربية التي توالت هجراتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد على وجه التقريب (٣٠٠٠ سنة ق.م)[2] .

---

١ انظر في كتابه على وجه الخصوص الصفحات ١٤٥ — ١٥٠ ومنها يتبين أن الأب مرمرجي كان يرد الثلاثي إلى الثنائي ويرى أن الثلاثي متفرع عن الثنائي .

٢ راجع الباب الثاني ٢٢ — ٢٥ عند ولفنسون . وقارن بـ Perrot, op. cit, 28.

والغربية : تنقسم هي الأخرى إلى شعبتين : شمالية وجنوبية . وفي الشمالية الكنعانية والآرامية .

أما الكنعانية فهي لغة القبائل العربية التي نزحت عـلى الأرجح من القسم الجنوبـي الغربي من بلاد العرب ، واستوطنت فلسطين وسوريـة وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكان ذلك حوالي الألف الثاني قبل الميلاد (٢٠٠٠ ق. م) وهي تشمل اللهجات التالية :

١ ــ الأجريتية ، وهي أقدم لغات المجموعة الكنعانيـة وأشهرها ، اكتشفت نقوشها سنة ١٩٢٦ في رأس شمراء على الساحل السوري للبحر المتوسط . ويرتدّ تاريخها إلى القرن ١٤ ق. م. وعن هذه الأجريتية أخذ العالم الكتابة الأبجدية .

٢ ــ الكنعانية القديمة ،وقد جاءنا بعض مفرداتها في رسائل تل العمارنة (عاصمة مصر في عهد أخناتون). كانت مدونة باللغة الأكادية ، وقد تبودلت بين ولاة مصر على فلسطين وبين فراعنة ذلك العهد (أمنوفيس الثالث وأمنوفيس الرابع وأخناتون) في أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر (١٤١١ ــ ١٣٥٨ ق. م) .

٣ ــ المؤابية[1] ، وهي لهجة المؤابيين الذين كانوا من نسل لوط بن أخي إبراهيم الخليل ، كما جاء في العهد القديم . وقد عُـثر على نقش مدون بهذه اللهجة هو نقش ملك المؤابيين ميشع[2] Mésa ، وفيه يصف انتصاره على ملك إسرائيل . وتاريخ هذا النقش لا يجاوز سنة ٩٠٠ ق.م.

٤ ــ الفينيقية ، وقد وصلت إلينا عن طريق بعض النقوش ، وقطع النقود التي عثر عليها في أقدم المواطن الفينيقية (صور ، صيدا، جبيل Byblos) . ولقد رحلت اللهجة الفينيقية مع أصحابها خارج الوطن الأصلي حتى استقرت في حوض البحر المتوسط ، ولا سيما في قرطاجنة. وكانت

---

١ تقع بلاد مؤاب في الجنوب الشرقي من البحر الميت .

٢ عثر العلماء على هذا النقش سنة ١٨٦٨ ، وهو الآن بمتحف اللوفر بباريس .

اللهجة الشائعة في قرطاجنة هي البونية Punique، وهي متفرعة عن الفينيقية، غير أن البونية قدر لها أن تبقى حتى القرن الخامس بعد الميلاد، فعاشت عمراً أطول من عمر أمها الفينيقية الأصلية. وأقدم النقوش الفينيقية إنما يرجع تاريخه إلى القرنين التاسع والعاشر ق. م.

٥ ــ العبرية، وهي أهم اللهجات الكنعانية على الإطلاق، وقد وصلت إلينا عن طريق أسفار العهد القديم، وفي ثنايا بعض النقوش واللوحات الصخرية، وأحياناً عن طريق تلاوة اليهود لآيات التوراة وبعض الأوراد. ونحن نقصد بالعبرية طبعاً عبرية العهد القديم، وهي تختلف اختلافاً عظيماً عن العبرية الحديثة التي أصبحت لغة الآداب اليهودية المستحدثة.

هذه هي لهجات الكنعانية: الأجريتية، والكنعانية القديمة، والمؤابية، والفينيقية، والعبرية[1].

وأما الآرامية فيؤخذ من بعض الآثار الآشورية ــ البابلية أن قبائلها قد هاجرت من الجزيرة أيضاً إلى أرض بابل وآشور فيما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وقد كانت الآرامية من العنفوان والقوة بحيث استطاعت أن تفرض نفسها على جميع أخواتها الشرقية والشمالية، حتى أضحت لغة التخاطب السائدة في الشرق الأدنى. وفي المرحلة الزمنية المحصورة بين سنتي ٣٠٠ ق. م و ٦٥٠ بعد الميلاد كانت هذه اللغة الآرامية قد بلغت ذروة مجدها في جميع بلاد العراق من جهة، وفي سورية وفلسطين وما يجاورهما من جهة أخرى. ويقدّر بعض فقهاء اللغة مساحة البلاد الناطقة بتلك اللغة في المرحلة المذكورة زهاء ٦٠٠ ألف كيلومتر مربع. ولم يكن بدّ من أن تتشعب هذه اللغة إلى مجموعة من اللهجات، فشملت المجموعة الشرقية منها اللهجات السائدة في بلاد العراق،

---

١ للتوسع في لهجات الكنعانية انظر ولفنسون ٥١ إلى ١١٣. وقارن بواي (فقه اللغة) ٣٠ ــ ٥١. وراجع في العبرية خاصة كتاب الأستاذ ربحي كمال «اللغة العبرية». وهو كتاب قيم حسن المنهج من أجود ما ألف في بابه.

وشملت المجموعة الغربية منها اللهجات الباقية المستخدمة في سورية وفلسطين وشبه جزيرة سيناء[1] .

العربية الجنوبية والعربية الشمالية

لاحظنا حتى الآن أن الشعبة الأساسية الشمالية في اللغات السامية الغربية اشتملت على الكنعانية بجميع لهجاتها ، وعلى الآرامية بجميع لهجاتها أيضاً، وقد آن لنا أن نعرف أن الشعبة الأساسية الأخرى في اللغات السامية الغربية – وهي الجنوبية – هي التي تشتمل على اللغتين العربيتين العظيمتين اللتين تعنينا دراستها بوجه خاص : وهما العربية الجنوبية والعربية الشمالية.

والعلماء يطلقون على العربية الجنوبية اسم « اليمنية القديمة » أو « القحطانية » ، ويلقبها بعضهم أحياناً « بالسبئية » تسمية لها بإحدى لهجاتها الشهيرة التي تغلبت عليها جميعاً في صراعها معها . وإن كثيراً من النقوش المدونة على التماثيل والقبور والأعمدة والصخور والمذابح وجدران الهياكل والنقود قد هدتنا إلى أصول هذه العربية الجنوبية القديمة، وإلى طريقة رسمها وأسلوب تعبيرها ، فعرفنا منها أن هذه اللغة بلهجاتها المتعددة تختلف عن اللغة العربية الشمالية (التي هي المقصودة بالعربية عند الإطلاق) اختلافاً جوهرياً أساسياً في القواعد النحوية ، والمظاهر الصوتية، والدلالات المعنوية .

وأهم اللهجات العربية الجنوبية أربع : المعينية ، والسبئية ، والحضرمية ،

---

١ والفرق بين هاتين المجموعتين من اللغات يلاحظ في كيفية النطق وفي نوع الدخيل من الألفاظ (انظر ولفنسون ١١٧) وقارن بـ Ghabot (Les langues araméennes).

والقتبانية [1] . ومعها اللغات السامية في الحبشة ولو تأثر معظمها باللهجات الحامية.

ويراد « بالمعينية» اللهجة المنسوبة إلى المعينيين Minéens الذين أسسوا في بلاد العرب ، في القسم الجنوبي من اليمن ، مملكة قديمة لا يعرف على وجه التحديد متى كانت نشأتها ، وإن كانت بعض الدلائل تشير إلى تكوّنها حوالي القرن الثامن ق. م .

و « السبئية » هي اللهجة المنسوبة إلى السبئيين الذين أقاموا مملكتهم على أنقاض المملكة المعينية . ومن المعروف أن مدينة « مأرب » كانت عاصمة المملكة السبئية التي كان لها في التاريخ شأن عظيم . وقد ظلت السبئية سائدة في بلاد اليمن خلال المدة الطويلة التي قبض فيها السبئيون على زمام الحكم ؛ بل لدينا من الآثار والنقوش ما يؤكد بقاء هذه اللهجة حتى في أثناء الحكم الحبشي الأول لهذه البلاد (بين سنتي ٣٧٥ — ٤٠٠ بعد الميلاد) .

و « الحضرمية » هي اللهجة المنسوبة إلى حضرموت التي استمرت أمداً غير قليل تنازل سبأ الحكم والسلطان . وكانت حضرموت مملكة عظيمة ذات حضارة زاهرة ، ولكن سبأ كانت أقوى منها فغلبتها على أمرها وأزالتها من الوجود .

و « القتبانية » هي اللهجة المنسوبة إلى قتبان Quataban ، وهي مملكة عظيمة أنشئت في المنطقة الساحلية الواقعة شمال عدن، وكُتب عليها أن تنقرض في أواخر القرن الثاني ق.م بعد الحروب الكثيرة التي نشبت بينها وبين سبأ، وكان من نتائج هذه الحروب أن اندمجت القبائل القتبانية في السبئية التي غلبتها على أمرها .

و « الحبشية السامية » لغات أهمها الجعزية، والأمهرية، والتيجرية. وأقدم هذه

---

١ فيما يتعلق بهذه اللهجات قارن وافي ٧١ — ٧٣ بولفنسون ١٧٥ — ١٩٤ (وستجد في كتاب ولفنسون خاصة صوراً لكثير من النقوش وحل رموزها . وقد رجع هذا الباحث فيها إلى كتب المستشرقين ونقل منها أهم استنتاجاتهم وملاحظاتهم) .

اللغات هي الجعزية أو الحبشية القديمة التي يرتدّ تاريخ آثارها إلى سنة ٣٥٠ م . وهي في بعض خصائصها قريبـــة من العربية . حلت محلها الأمهرية سنة ١٢٧٠ ثم باتت منذ القرن التاسع عشر لغة الحبشة الرسمية . أما التيجرية فهي شديدة الشبه بالجعزية وإن لم تتفرع منها .

من هذا العرض السريع للهجات العربية الجنوبية يتضح أن السبئية هي التي غلبتها جميعاً في صراعها معها ، فقوضت قبائلهـا مُلك المعينيين ، وأزالت ملك الحضارمة والقتبانيين ، وظلت لهـــا السيادة في بلاد اليمن القديمة . وأكثر النقوش التي عثر عليها مدونة بهذه السبئية المتغلبة وجدت في منطقة العلا في الواحات الواقعة شمال بلاد الحجـاز ، ومنها ما عثر عليه في المناطق الشمالية المتاخمة لبلاد كنعان . والخط الذي كانت تدون به هذه النقوش هو المعروف « بالمسند » الذي تستند أكثر حروفه إلى ما يشبه الأعمدة ، وهو خط هندسي الشكل لطيف منسق . ونذكر على سبيل المثال سطراً من أحد النقوش السبئية ندونه بحروفنا العربية ، ونترجمه إلى لغتنا ، ليظهر الفرق العظيم بين العربية الجنوبية القديمة بسائر لهجاتها وبين العربية الشمالية التي ما نزال ننطق بإحـدى لهجاتها إلى يومنا هذا .

النقش السبئي[1]

« بمقم مراهيمو عشتر شرقرن واشمسهو
والال تهمو وباخيل ومقيمت خميس »

الترجمة العربية : بمجد سيدتهم عشتروت المشرقـة وآلهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش) .

أما العربية الشمالية فإننا لا نكاد نعرف شيئاً عن نشأتها والمراحل التي اجتازتها في عصورها الأولى ، وهي قسمان : العربية البائدة التي لا يتجاوز أقدم ما وصلنا من نقوشهـــا القرن الأول ق. م والعربية الباقية التي لا تجاوز آثارها القرن الخامس بعد الميلاد .

---

١ هذا النقش منقول من كتاب ولفنسون ص ٢٤٨ — ٢٥٠ (السطر الخامس من النقش) .

العربية البائدة وأهم لهجاتها

وواضح أن المراد من العربية البائدة عربية النقوش التي بادت لهجاتها قبل الإسلام ، وهي التي ظهر على آثارها الطابع الآرامي ، لبعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز [1] ، على حين يقصد بالعربية الباقية هذه اللغة التي ما نزال نستخدمها في الكتابة والتأليف والأدب ، وهي التي وصلت إلينا عن طريق القرآن الكريم والسنة النبوية والشعر الجاهلي.

وأهم اللهجات العربية البائدة ثلاث : الثمودية ،والصفوية ، واللحيانية .

فالثمودية هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل ثمود التي جاء في القرآن ذكرها وذكر مساكنها في مواضع كثيرة . وتاريخ معظم النقوش المدونة بهذه اللهجة يعود إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . ويبلغ تعداد هذه النقوش ما يزيد على ألف وسبعمائة عثر عليها فيما بين الحجاز ونجد في شبه جزيرة سيناء وبالقرب من دمشق ، وقد دونت بخط جميل أنيق مشتق من « المسند » يتجه من أعلى إلى أسفل ، ولا يثبت على حال واحدة . وإذا أنعمنا النظر في النقوش الصفوية وجدنا فيها كلمات غير مألوفة في العربية أخذت من العبرية والسريانية [2] .

والصفوية هي اللهجة المنسوبة إلى منطقة الصفا ، وإن كانت نقوشها قد عُثر عليها في مواطن مختلفة في الحَرّة الواقعة بين تلول الصفا وجبل الدروز . ويبلغ عدد هذه النقوش حتى هذا التاريخ ما يزيد على ألفين ،

---

١ ولكن العلماء غلوا أحياناً في إظهار الطابع الآرامي كلما وجدوا ألفاظاً غير مألوفة عند العرب . وقد نبه فرنكل S. Fraenkal على هذا الغلو في أبحاثه :
Die aramaischen Fremdwôrter in Altarabischen
وقارن بولفنسون ١٦٣ .

٢ انظر ما يقوله Litmann في هذا الصدد في أبحاثه : Semitic Inscriptions 115-119.

ولعل تاريخ تدوينها يرجع إلى ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين. وقد حل معظم رموزها واكتشف حروفها الأبجدية المستشرق الألماني إنّو ليمان Enno Litmann [1] ، ولاحظ أن خطها قريب من الثمودي ، ولا يبعد أن يكون مشتقاً منه ، إلاّ أنه شديد التغير والاختلاف ، فما يكاد يستقر على حال واحدة ، فهو تارة يُقرأ من الشمال إلى اليمين ، وتارة أخرى من اليمين إلى الشمال . وهذا التشابه بين الخطين الثمودي والصفوي جعل بعض العلماء يطلقون على الخط القديم الذي يبدو فيه أثر النوعين كليهما اسم « الخط الثمودي الصفوي » فإذا أرادوا التمييز والتفرقة قالوا : هذا خط ثمودي فقط ، وهذا خط صفوي فقط .

واللحيانية هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل لحيان التي يرجّح أنها كانت تسكن شمال الحجاز قبل الميلاد . وقد عثر على نقوش كثيرة تذكر أسماء ملوك لحيان ، وأغلب الاحتمالات أن تاريخ هذه النقوش يعود إلى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ قبل الميلاد . والخط الذي دونت له مشتق كذلك من المُسند، غير أنه آنقُ وألطف وأثبت نظاماً وأكثر رونقاً من الخطين الثمودي والصفوي ، فهو يكتب مستعرضاً من اليمين إلى الشمال .

ومع أن هذه المجموعة من اللهجات الثلاث : الثمودية ، والصفوية ، واللحيانية ، لم تصل إلينا إلاّ عن طريق نقوش قليلة الأهمية على كثرتها ، ضحلة المادة على تنوعها ، امتازت بأمرين ، أحدهما أنها أقرب لهجات العربية البائدة إلى الفصحى ، والآخر أن الخط الذي دونت به ينبغي أن يعتبر المرحلة الأولى في تطور الخط العربي وانتشاره [2] .

وقد عثر على نقوش يستأنس بها على وجود شيء من التقارب بين العربية البائدة والعربية الباقية . ومن أهمها نقشان أحدهما مدوّن على قبر

---

١ في أبحاثه Zur Entzifferung der Safa-Inschriften

٢ ولفنسون ١٨٩ وقارن بواني (فقه ١٠١) .

صنعه كعب بن حارثة للقيض بنت عند منـاة ، وهو مؤرخ سنة ٢٦٢ بعد دمـــار مملكة النبط ، وفقاً لتاريخ مدينـة بصرى ، أي حوالي سنة ٣٦٨ ميلادية ، لأن حادثة تدمير المملكة النبطية وقعت سنة ١٠٦ بعـد الميلاد . وإذا رأيتَ صورة هذا النقش[1] وحللت رموزه بالعربية وألحقت به أصوات المد أصبحت عبارتـه : (ذين للقيض بنت عبد مناة) — أي هذا القبر للقيض بنت عبد مناة .

والنقش الثـــاني هو نقش النمارة Némar ، وهو قصر صغير للروم في الحرة الشرقية من جبال الدروز . وقد دوّن هذا النقش سنة ٢٢٨م في مدفن امرىء القيس بن عمرو ملك العرب ، وهو من ملوك الحيرة الذين انتشر نفوذهم حـــتى بادية الشام . وهذا النقش على جانب من الأهمية عظيم ، لأنـــه مدون بالخط النبطي المتأخر الذي يرتبط بعضه ببعض — خلافـــاً للخط النبطي القديم — فيشبه من هذه الناحية كثيراً الخط الكوفي ، ولذلك يرى أكـــثر العلماء أن الخط الكوفي منحدر من النبطي،والنقش يشتمل على خمسة أسطر نقل ولفنسون صورتها في « تاريخ اللغات السامية »[2] . ومن المفيد الاطلاع عليها ، لتتبع المراحل التي مرّ بها الخط العربـي حتى انتهى إلى رسمه الحديث .

وبعد أن رجعنا البصر في هذه اللمحة التاريخية عن اللغات السامية ، لم يسعنا أن نتغافل عن أواصر القربى بين تلك اللغـات ، بل وجدناها جميعاً في مناطق متقاربة ، لم يبدل توالي العصور من مناطقهـــا شيئاً ، كأنما كُتِب عليها أن تخلد خلود الشرق مطبوعة بطابعه ، محذوّة على مثاله ، منذ ظهرت في العراق الآشورية البابليـة حتى برزت في جزيرة العرب العربيةُ الشمالية .

---

١ انظر صورة هذا النقش في (ولفنسون ١٧٨) .

٢ انظر في المصدر السابق ص ١٩٠ صورة هذا النقش أيضاً .

ولم ننس بعد أن الكنعانية والعبرية ظهرتا في فلسطين وسورية وبعض جزر البحر الأبيض ، وأن الآرامية والسريانية عاشتا في العراق وسورية وفلسطين ، وأنّ كثيراً من الباحثين جعل المهد الأول لهذه الشعوب السامية جزيرة العرب [1] .

وإن هذا التقارب الزماني المكاني ليدل دلالة قاطعة على أنّ العربية فرع في هذه الفصيلة السامية ، ولا يفصم العرى بين الأصل والفرع إلا باحث متسرع ، أو مكابر جحود .

---

١ قارن بالنحو العربي على ضوء اللغات السامية ٢٤ – ٢٥ .

الفصل الثالث

العربية الباقية وأشهر لهجاتها

●

لقد أوضحنا أن اللغة العربية الباقية هي التي ما نزال نستخدمها في الكتابة والتأليف والأدب ، وهي التي وصلتنا عن طريق الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والسنة النبوية . لذلك تنصرف إليها (العربية) عند إطلاقها . والواقع أنّ الإسلام صادف – حين ظهوره – لغة مثالية مصطفاة موحدة جديرة أن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم ، فزاد من شمول تلك الوحدة وقوّى من أثرها بنزول قرآنه بلسان عربي مبين هو ذلك اللسان المثالي المصطفى[1] ، وكان تحدّيه لخاصة العرب وبلغائهم أن يأتوا بمثله أو بآية من مثله أدعى إلى تثبيت تلك الوحدة اللغوية ، على حين دعا العامة إلى تدبر آياته وفقهها وفهمها ، وأعانهم على ذلك بالتوسعة في القراءات ، ومراعاة اللهجات ، في أحرفه السبعة المشهورة[2] .

---

١ اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس ٣٤ .

٢ راجع في كتابنا (مباحث في علوم القرآن) فصل « الأحرف السبعة » ص ١٠١ (الطبعة الخامسة).

والوحدة اللغوية التي صادفها الإسلام حين ظهوره ، وقوّاها قرآنه بعد نزوله ، لا تنفي ظاهرة تعدد اللهجات عملياً قبل الإسلام وبقاءها بعده ، بل من المؤكد أنّ عامة العرب لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدثون بتلك اللغة المثالية الموحدة ، وإنما كانوا يعبّرون بلهجاتهم الخاصة، وتظهر على تعابيرهم صفات لهجاتهم ، وخصائص ألحانهم . قال ابن هشام[1] : « كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكلٌ يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها . ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات[2] ».

ويبدو أن اللغويين الأقدمين لم يعرضوا للّهجات العربية القديمة في العصور المختلفة عرضاً مفصّلاً يقفنا على الخصائص التعبيرية والصوتية لهاتيك اللهجات ، لأنهم شُغِلوا عن ذلك باللغة الأدبية الفصحى التي نزل بها القرآن ، وصيغت بها الآثار الأدبية في الجاهلية وصدر الإسلام[3] . وهم — لشعورهم بعدم توفرهم على دراسة هذا الموضوع دراسة دقيقة عميقة — كانوا يتخلصون من اختلاف اللهجات بالاعتراف بتساويها جميعاً في جواز الاحتجاج بها ، بعد الاكتفاء بإشارات عابرة مبثوثة في كتب

---

١ هو أحد أئمة العربية المشاهير ، عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، المعروف بابن هشام ، كثير التصانيف في النحو ، وأشهرها « مغني اللبيب » وهو معروف . وبعض كتبه لا يزال مخطوطاً « كالجامع الصغير » في النحو . قال ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » . توفي ابن هشام سنة ٧٦١ هـ . (وراجع ترجمته في الدرر الكامنة ٢/٣٠٨) .

٢ المزهر ١/٢٦١ ط/٣ . وإلى هذه الطبعة سنحيل في الفصول القادمة . ولمزيد الإيضاح انظر جريدة المراجع .

٣ قارن بالنحو العربي على ضوء اللغات السامية ٣٩ — ٤٠ .

الرواية واللغة إلى بعض تلك اللهجات . فهذا ابن جني[1] على عنايته بدقائق الدراسة اللغوية لا يتردد في « خصائصه » في عقد فصل خاص حول ما سماه « اختلاف اللغات وكلها حجة » وهو يقصد باللغات لهجات العربية المختلفة ، وينص على جواز الاحتجاج بها جميعاً ، ولو كانت خصائص بعضها أكثر شيوعاً من خصائص بعضها الآخر فيقول : « إلاّ أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين ؛ فأمّا إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مقبولٌ منه غيرُ مَنْعِيٍّ عليه ، وكذلك أن يقول : على قياس مَنْ لغتُه كذا كذا ، ويقول : على مذهب من قال كذا كذا ؛ وكيف تصرفت الحال فالناطقُ على قياس لغةٍ من لغات العرب مصيبٌ غيرُ مخطىء ، وإن كان غيرُ ما جاء به خيراً منه »[2] .

ومن يعترف بأن اللغات كلها حجة ، لا يتعذر عليه أن يتصور اجتماع لغتين فصاعداً في كلام الفصيح ، فحين قال الشاعر :

فَظَلْتُ لدى البيت العتيق أخيلهو
ومِطْوايَ مشتاقانِ لَهْ أرقانِ

لم يكن عسيراً على ابن جني أن يرى في إثبات الواو في « أخيلهو » وتسكين الهاء في قوله « لَهْ » لغةً جديدة انضمت إلى لغة الشاعر الفصيح ، « فليس إسكان الهاء في لَهْ عن حذف لحق بالصنعة الكلمة ،

---

١ هو أحد أئمة اللغة والنحو والأدب ، عثمان بن جني ، أبو الفتح ، له شعر . كان المتنبي يقول فيه : « ابن جني أعرف بشعري مني » . طبع كثير من تصانيفه ، ولا يزال بعضها مخطوطاً « كالمحتسب في شواذ القراءات » . وكتابه « الخصائص » من أنفس المؤلفات في العربية . توفي سنة ٣٩٢ هـ . (وانظر في ترجمته ان شئت معجم الأدباء ٥/١٥ – ٣٢) .

٢ الخصائص ١/٤١١ .

لكن ذاك لغة ! »[1] .

ومثل هذا الفصيح الذي يجتمع في كلامه لغتان فصاعداً ينصح ابن جني بتأمل كلامه ، « فإن كانت اللفظتان في كلامه متساويتين في الاستعمال ، كثرتهما واحدة ، فإنّ أخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت في ذلك المعنى على تيْنك اللفظتين ، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان أشعارها ، وسعة تصرف أقوالها »[2] ؛ وهكذا ينقل ابن جني تنوع الاستعمال من الفرد إلى القبيلة،أو قُلْ من الانحراف الشخصي إلى العرف الجماعي ، تهرباً من الاعتراف بشذوذ الفرد ، ما دام فصيحاً !!

وهذا التهرب واضح في دفاع ابن جني عن الفصيح حين تكون إحدى اللفظتين أكثر في كلامه من صاحبتها ، فهو يرى حينئذ أن التي كانت أقل استعمالاً « إنما قلّت في استعماله لضعفها في نفسه وشذوذها عن قياسه ، وإن كانتا جميعاً لغتين له ولقبيلته »[3] . ويستشهد على ذلك بحكاية أبي العباس عن عمارة قراءته « ولا الليلُ سابقُ النهارَ » بنصب النهارَ ، وأن أبا العباس قال له : ما أردتَ ؟ فقال : أردت سابقٌ النهارَ . فعجب أبو العباس لِمَ لمْ يقرأه عمارة على ما أراده فقال له : فهلاّ قلتَه ؟ فقال عمارة : لو قلته لكان أوزنَ : أي أقوى !

والنتيجة المنطقية لهذه المقدمات أن تتساوى اللغتان القوية والضعيفة في كلام الفصحاء ، فهم « قد يتكلمون بما غيرُه عندهم أقوى منه ، وذلك لاستخفافهم الأضعفَ ،إذ لولا ذلك لكان الأقوى أحقّ وأحرى[4] .

---

١ نفسه ١/٣٧٥ .

٢ نفسه ١/٣٧٧ .

٣ الخصائص ١/٣٧٧ .

٤ نفسه ١/٣٧٧ – ٣٧٨ .

فلا ضير إذن أن يقول الشخص الواحد في المسمى الواحد : رُغوة اللبن، ورَغوته ، ورِغوته ، ورُغاوته، ورِغايته ، ورُغايته فـ « كلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحـد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد ، من هنا وهناك »[1] .

وأطرف من ذلك كلـه أن يخلص ابن جني إلى تداخل اللغـات وتركّبها ، فيصم بضعف النظر وقلة الفهم كلّ من يفسر هذا التداخل بالشذوذ ، أو ينسبه إلى الوضع في أصل اللغة[2] ، ولا يتردد في الاحتجاج لثبوت تركب اللغات بحكاية يرويها عن الأصمعي[3] أنه قال : « اختلف رجلان في الصقر ، فقال أحدهما « الصقر » بالصاد ، وقال الآخر : « السقر » بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما ، فحكيا له ما هما فيه، فقال : لا أقول كما قلتما ، إنما هو « الزقر ! » ويعلق ابن جني على هذا بقوله : « أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثـة ، كيف أفاد في هذه الحال، إلى لغته لغتين أخريين معها ؟ وهكذا تتداخل اللغات !»[4] .

وابن فارس* نظر إلى هذا الموضوع أيضاً من خلال المنظار نفسه ،

---

١ نفسه ١/٣٧٨ .

٢ نفسه ١/٣٧٩ .

٣ الأصمعي هو عبد الملك بن قريب ، أبو سعد ، من علماء اللغة وأئمتها . أخذ الروايات والأخبار عن العرب في باديتهم وأحيائهم . توفي سنة ٢١٦ هـ . نشرت له بعض الأبحاث في اللغة ككتاب خلق الإنسان ، والإبل ، وأسماء الوحوش ، وصفاتها .

٤ الخصائص ١/٣٧٨ – ٣٧٩ .

* هو أحمد بن فارس الرازي ، أبو الحسين ، أحد أئمة اللغة والأدب، أستاذ الصاحب بن عباد، والبديع الهمذاني . توفي سنة ٣٩٥ في الري ، وإليها نسبته . له كتاب « الصاحبي في فقه اللغة » وقد طبع سنة ١٣٢٨ في القاهرة ، و « مقاييس اللغة » في ستة أجزاء وقد نشره عبد السلام هارون في القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ . وله أيضاً « المجمل » الذي طبع الجزء الأول منه في القاهرة سنة ١٣٣١هـ. وفي « الظاهرية » أجزاء مخطوطة منه .

فبعد أن ذكر صوراً متباينة من اختلاف لغات العرب ، وصرّح بأنها « كانت لقوم دون قوم » لم يرتَبْ في تداولها على ألسنة العرب ، على ما كان في بعضها من اللغات الضعيفة ، « فإنها لما انتشرت تعاوَرَها كلٌّ »[1] . فهل على أبي حيّان[2] من حَرَج بعد هذا إذا رأى أن « كل ما كان لغةً لقبيلة قيس عليه » ؟[3] .

وعلى هذا الأساس من تساوي جميع اللهجات العربية في جواز الاحتجاج بها ، لم تكن ثمة بواعث قوية تحمل القدامى على العناية باللهجات عناية خاصة ، فوقعوا في كثير من التناقض حين استنبطوا قواعدهم النحوية والصرفية من كل ما روي عن القبائل ، وأقحموا على الفصحى خصائص اللهجات المتباينة بوجوهها المتعددة ، « ولم يصدروا — كما قال الأستاذ سعيد الأفغاني — في تنسيق شواهدهم عن خطة محكمة شاملة ؛ فأنت تجد في البحث من بحوثهم قواعد عدّة ، هذه تستند إلى كلام رجل من قبيلة أسد ، وتلك إلى كلام رجل من تميم، والثالثة إلى كلمة لقرشي . وتجد على القاعدة تفريعاً دعا إليه بيت لشاعر جاهلي ، واستثناءً مبنياً على شاهد واحد اضطر فيه الشاعر إلى أن يركب الوعر حتى يستقيم له وزن البيت !! »[4] . ومنشأ هذا كله خلطهم بين اللغة الأدبية المثالية الموحدة التي هي لغة الخاصة وبين لهجات التخاطب العامة لدى القبائل الكثيرة المشهورة ، على حين أنّ شرط اللغة هو الاطراد والتوحد في الخصائص* .

---

١ الصاحبي ٢٢ .

٢ هو العالم اللغوي المشهور محمد بن يوسف ، أبو حيان الأندلسي ، صاحب التفسير المعروف « بالبحر المحيط » . وله « التذييل والتكميل » في شرح التسهيل لابن مالك. توفي سنة ٧٤٥ هـ.

٣ المزهر ١/٢٥٨ .

٤ في أصول النحو ٦١ .

* اللهجات ٤١ .

ويزداد الأمر تعقيداً بعد ذلك ، فتدرس اللهجات في ضوء ما وضعه النحاة من القواعد والمقاييس ، ويحكم عليها – مع تنوع أصولها – من وجهة نظر واحدة هي مطابقتها أو مخالفتها لهاتيك القواعد ، كما فعل الهمذاني (– ٣٣٤) في « صفة جزيرة العرب »[١] .

والحق أنّ العرب – ككل شعوب العالم – كانوا قبل الإسلام وبعده منقسمين إلى فئتين : فئة الخاصة التي كانت تتطلع إلى صقل لغتها وتحسينها ، فتسمو في تعابيرها إلى مستوى أرفع من مستوى التخاطب العادي ، وفئة العامة التي كانت تكتفي بحظ قليل من فصاحة القول وبلاغة التعبير ، وتمضي تبعاً لتقاليدها الخاصة وبيئاتها الجغرافية الخاصة إلى الاستقلال في صياغة جملها وتركيب مفرداتها ولحن أصواتها[٢] . ومما لا ريب فيه أنّ البيئة الحضرية في مكة والمدينة كانت بضرورة الحال تختلف لهجاتها عن لهجات البيئات البدوية المنعزلة التي لا تكاد تستقر على حال : فمهما تكن اللغة العربية قد صُقلت وتوحّدت قبل الإسلام ، ومهما تكن وحدتها قد قويت وتمّت بعد الإسلام،لا يسعنا أن نتصورها إذ ذاك إلا مؤلّفة من وحدات لغوية مستقلة منعزلة متمثلة في قبائلها الكثيرة المتعددة[٣] . على أنّ الكتب التي عرضت لتلك اللهجات كثيراً ما تغفل أسماء قبائل معينة تنسب إليها لهجة ما ، ومن خلال الكتب المذكورة – على ندرتها – نستنتج أن أشهر القبائل التي تروى لها لهجات خاصة تختلف عن اللغة الأدبية المثالية اختلافاً ذا بال هي : تميم وطيّىء وهذيل ، وهي جميعاً قبائل معروفة بالفصاحة ، بدوية ضاربة في أنحاء الصحراء .

---

١ انظر آراءه في اللهجتين المهرية والشحرية ، فهو يرى أن أهلها غمّ يشاكلون العجم . « صفة جزيرة العرب ، ص ٩٢ » .

٢ اللهجات ٣٦ .

٣ نفسه ٣١ .

ومع كثرة من ينتمي إلى هذه القبائل من الشعراء يلاحظ أن أحداً من رجال الطبقة الأولى لم ينسب إليها ، وإنما كان المنتسبون إليها من الجاهليين مقلّين ، لا يروى عنهم إلا النزر اليسير . فمن التميميين أوس ابن حجر ، وسلامة بن جندل ، وعلقمة بن عبدة ، وعدي بن زيد، وعمرو بن الأهتم ، والبرّاق بن رَوْحان ، والأسود بن يعفر . ومن الطائيين حاتم الطائي ، وأبو زبيد الطائي ، وإياس بن قبيصة . ومن الهذليّين : أبو ذؤيب الهذلي ، وعامر بن حُلَيْس،وخويلد بن خالد[1] .

وإذا آثرنا عدم التوسع في هذه اللهجات — حتى لا يطول بنا البحث كثيراً والمقام لا يسمح به — فإنّ أقصى ما يُغْتَفَرُ لنا الاقتصار عليه من لهجات العربية الباقية مجموعتان رئيستان عظيمتان ، إحداهما حجازية غربية أو كما تسمى أحياناً « قرشية » والأخرى نجدية شرقية أو كما تدعى أحياناً « تميمية » ، فهذه القسمة الثنائية الرئيسة للّهجات العربية الباقية هي الحد الأدنى لتلك المجموعة الواسعة من الوحدات اللغوية المنعزلة المستقلة . وليستحيلنّ علينا بدون هذه القسمة أن نعلل تعليلاً علمياً صحيحاً وجودَ تِعْلم ونِعْلم بكسر حرف المضارعة إلى جانب تَعْلم ونَعلم ، ووجودَ حُمْر وجُمْعة إلى جانب حُمُر وجُمُعة ، ووجودَ حَقَدَ يحقَدُ إلى جانب حَقَدَ يَحقِد ، ووجودَ مَدْيون إلى جانب مَدِين ، ومُرْية ومِرْية ، وهيهات وأيهات[2] ، وأمثال ذلك أكثر مما نتصور ، والخلاف حوله في أصل لهجتي قريش وتميم أوسع نطاقاً مما نقدر أو نستشعر . وسنرى أن لهجة قريش،التي جعلتها العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية اللغةَ العربية الفصحى المقصودة عند

---

١ عبارة الدكتور إبراهيم أنيس في (اللهجات ١٤٠) أشد عنفاً مما ذكرنا، ولا داعي لهذا الغلو، ففي كتب « الطبقات » إشارة إلى بعض أولئك الفحول مع كثرة ما ينسب اليهم من الشعر، بالإضافة إلى غيرهم . وحسبك بديوان الهذليين حجة وبرهاناً !

٢ اللفظة الأولى من جميع هذه الأمثلة لتميم والأخرى لقريش .

الإطلاق ، لم تكن في جميع الحالات أقوى قياساً من لهجة تميم ، بل كثيراً ما تفوقها في بعض ذلك تميم ، ولكنها – أي القرشية – باعتراف من جميع القبائل وبطواعية واختيار من مختلف لهجاتها ، كانت أغزرها مادة ، وأرقها أسلوباً ، وأغناها ثروة ، وأقدرها على التعبير الجميل الدقيق الأنيق في أفانين القول المختلفة ؛ « فقد ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء »[1] . ولقد أكد الفرّاء[2] صفاء لغة قريش وأوضح أسرار ذلك الصفاء بقوله : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ »[3] . لذلك اصطُنعت لغة قريش وحدها في الكتابة والتأليف والشعر والخطابة ، فكان الشاعر من غير قريش يتحاشى خصائص لهجته ويتجنب صفاتها الخاصة في بناء الكلمة وإخراج الحروف وتركيب الجملة ، ليتحدث إلى الناس بلغة ألِفوها ، وتواضعوا عليها ، بعد أن أسهمت عوامل كثيرة في تهذيبها وصقلها .

وفي كتب اللغة إشارات إلى بعض المذموم من لهجات العرب . من ذلك الكشكشة ، وهي في ربيعة ومضر ، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً ، فيقولون : رأيتكش ، وبكش وعليكش ، فمنهم من يثبتها حالة الوقف فقط ، وهو الأشهر ، ومنهم من يثبتها في الوصل أيضاً ، ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكّنها

---

١ الخصائص ١/٤١١ .

٢ هو يحيى بن زياد المعروف بالفراء ، من أئمة الكوفة في اللغة والنحو توفي نحو سنة ١٦٠ هـ .

٣ المزهر ١/٢٢١ .

في الوقف ، فيقول : مِنْش وعَلَيْش[1] . وفي ذلك أنشد قائلهم :

فعيناشِ عيناها ، وجيدشِ جيدُها
ولونُشِ ، إلا أنها غيرُ عاطلِ[2]

ومن ذلك الفحفحة في لغة هذيل ، يجعلون الحاء عيناً[3] .

ومن ذلك الطُمْطُمانية في لغة حِمْيَر . كقولهم : طاب امْهواء : أي طاب الهواء[4] .

ومن ذلك : العَجْعَجة في لغة قضاعة ، يجعلون الياء المشددة جيماً ، يقولون في تميمي : تميمّج[5] . وقال أبو عمرو بن العلاء[6] : قلت لرجل من بني حنظلة : ممن أنت ! قال : فُقَيْمّج . فقلت : من أيهم ؟ قال : مُرِّجّ ، أراد فُقَيْمي ومُرّيّ[7] . ولذلك اشتهر إبدال الياء جيماً مطلقاً في لغة فقيم حتى أنشد شاعرهم :

خالي عُوَيْفٌ وأبو عَلَجٌ المطعمانِ اللحمَ بالعشجٌ
وبالغداة فلق البرْنجٌ[8]

---

١ المزهر ١/٢٢١ .

٢ الصاحبي ٢٤ .

٣ المزهر ١/٢٢٢ .

٤ نفسه ١/٢٢٣ .

٥ نفسه ١/٢٢٢ .

٦ هو زبان بن العلاء ، أحد أئمة اللغة والأدب ، ومن قراء القرآن المشاهير . كانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية . أخذ عنه كثيرون منهم الأصمعي وأبو زيد والأخفش وعيسى بن عمر . توفي نحو سنة ١٤٥ هـ .

٧ أمالي القالي ٢/٧٧ .

٨ قارن الصاحبي ٢٥ بأمالي القالي ٢/٧٧ .

ومن ذلك شنشنة اليمن ، تجعل الكاف شيناً مطلقاً كلبيش اللهم لبيش ، أي لبيك[1] .

والخلخانية أعراب الشحر وعمان ، كقولهم : مشا الله كان أي ما شاء الله كان[2] .

وعنعنة تميم ، تقول في موضع أن : عن . أنشد ذو الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة[3] .

فلو أن شاعراً ضمن شعره شيئاً من كشكشة ربيعة أو طمطمانية حمير أو عجعجة قضاعة ، وغدا ينشده في بعض أسواق العرب، لغلبوه على أمره بالمكاء والتصدية ، ولصيروه أضحوكة من التهكم به والتندر عليه . ولكي تتصور مثل هذا الموقف تخيل رجلاً يكشكش الكافات في قول امرىء القيس من معلقته :

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

فهو سينشد البيت هكذا :

أغرتش مني أن حبتش قاتلي وأنتش مهما تأمري القلب يفعل

وتخيل رجلاً آخر يطمطم لامات التعريف ، فيسأل الرسول العربي ﷺ : هل من امبر امصيام في امسفر ؟ يقصد : هل من البر الصيام في السفر، فيضطر عليه السلام لاستخدام لغته ليفهمه الحكم الشرعي فيجيبه « ليس من امبر امصيام في امسفر »[4] .

---

١ المزهر ١/٢٢٢ .
٢ نفسه ١/٢٢٣ .
٣ الخصائص ١/٤١١ .
٤ الكفاية في علم الرواية للخطيب ١٨٣ .

ثم تخيل رجلاً ثالثاً يعجعج الياءات المسبوقة بالعَيْنات ، فيقول : (الرّاعج خرج معج) بدلاً من (الراعي خرج معي) .

فلا غرْوَ بعد هذا كله إذا نزل القرآن بلغة العرب المثالية ، وبارك توحّدها ، وسما بها إلى الذروة العليا من الكمال بعد أن كانت لهجة محدودة لإحدى قبائل العرب[1] ، ولا عجب إذا اقتصر على تحدّي خاصة العرب القادرين على التعبير بتلك اللغة الموّحدة ، ثم لا غرابة أخيراً إذا تعددت وجوه قراءاته تخفيفاً على القبائل ، وحلاً لمعضلة تباين اللهجات .

---

١ انظر « بلاد العرب قبل النبي » لبرجيه (النشرة الأسبوعية للاتحاد العالمي سنة ١٨٨٥ م) . عدد ٢٧١ ، ٢٧٢ .

شجرة اللغات السامية

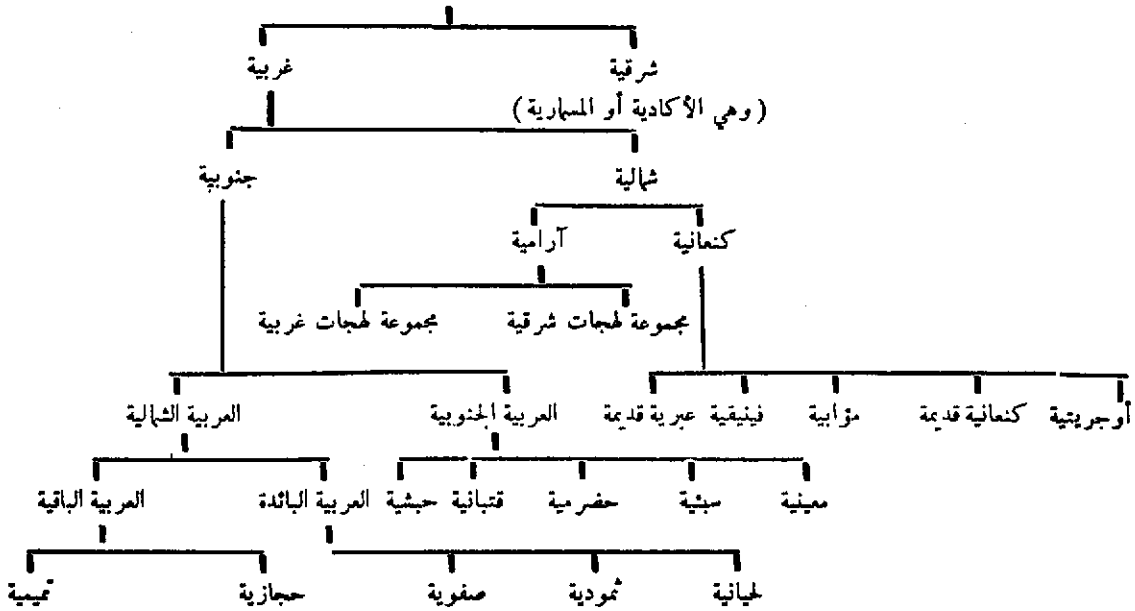

الفصل الرابع

لهجة تميم وخصائصها

•

لقد أُتيح للغة قريش أن تتبوأ المكانة الأولى بين اللهجات العربية الشمالية ، فأصبحت هي الفصحى المقصودة عند الإطلاق ، وكان على اللغويين القدامى أن يعنوا بها عناية خاصة ، ويفضلوا نطقها ورسمها وإعرابها ووضعها واشتقاقها ، فلم تحظَ اللهجات العربية الباقية منهم إلا بالقليل من أبحاثهم . فلندع الحديث عن لهجة قريش جانباً ، فقد أشبعها علماؤنا بحثاً ، وقد زادها نزول القرآن بها مكانةً ومجداً ؛ ولندرس لهجة تميم بين مجموعة اللهجات النجدية الشرقية ؛ لنحاول إلقاء بعض الأضواء عليها ، وكشفَ الغموض الذي يكتنف بعض خصائصها ومزاياها .

إن في المصادر القديمة والمعجمات اللغوية ما يشير إلى أنّ كثيراً من قواعد اللهجة التميمية أقوى قياساً من بعض القواعد القرشية ، بل فيها ما يكاد الباحث يستنتج منه باطمئنان أنّ لهجة تميم كانت في كثير من

مفرداتها وتراكيبها هي التي ينطق بها غالباً أبناء اللغة العربية . فهـذا سيبويه[1] يذكر كيف يراعي التميميون القيـاس في كسر أوائل الأفعال المضارعة ، ويقرّر بوضوح أنّ « ذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز » ؛ ويؤكد ابن منظور[2] في « لسان العرب »[3] نسبة هذا القول إلى سيبويه في العبارة الآتية « وزعم سيبويه أنهم يقولون : تَقَى الله رجلٌ فعل خيراً ، يريدون اتّقى الله رجل، فيحذفون ويخففون . وتقول أنت : تَتَّقي الله ، وتِتَّقي الله ، على لغـة من قال تَعْلم وتِعْلم . وتِعْلم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب . وأما أهـل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيـل فيقولون : تَعْلم والقرآن عليها . قال : وزعم الأخفش[4] أنّ كل من ورد علينا

---

١ هو إمام النحاة ، عمرو بن عثمان ، أبو بشر ، الملقب بسيبويه . أول من بسط علم النحو ، وصنف كتابه المسمى « كتاب سيبويه » لم يصنع قبله ولا بعده مثله في النحو . توفي شاباً سنة ١٨٠ هـ . (ترجمته في الوفيات ١/٣٨٥ وطبقات النحويين ٦٦ – ٧٤) .

٢ هو محمد بن مكرم ، المعروف بابن منظور المصري ، لغوي كبير . توفي بالقاهرة سنة ٧١١ هـ . طبع معجمه « لسان العرب » في بولاق ثم في بيروت أخيراً .

٣ « لسان العرب » ٢٠/٢٨٣ . وفي القراءات الشاذة ، ص ٨ (إياك نعبد) بكسر النون . وقد علق عليها العكبري بقوله : « لغة فاشية في العرب يكسرون حرف المضارعة » . صورة شمسية لمخطوطة الكتاب بالمجمع العلمي بدمشق رقم ٥٩ . أما ابن سيده فيؤكد أن كسر أوائل الحروف المضارعة معروف في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز . وانظر أمثلته الكثيرة وشواهده في « المخصص ١٤/٢١٦ » وما بعدها . وقارن بالصاحبي ١٩ والمزهر ١/٢٥٥ .

٤ هو عبد الحميد بن عبد المجيد ، أبو الخطاب ، الأخفش الأكبر ، مولى قيس بن ثعلبة . كان إماماً في العربية ، لقي الأعراب وأخذ عنهم وعن أبي عمرو بن العلاء وطبقته . أخذ عنه سيبويه والكسائي ويونس وأبو عبيدة . توفي سنة ١٧٧ هـ (ترجمته في بغية الوعاة ٢٩٦ وإنباه الرواة ٢/١٥٧) .

من الأعراب لم يقل إلا تعلم . قال : نقلته من نوادر أبي زيد »[1] .

وفي الباب الذي يعقده ابن جني في « خصائصه » لتعارض السماع والقياس ، يعترف بأن التميمية أكثر مراعاةً للقياس من القرشية، ويبين الفرق بين ما كان أقوى قياساً وما كان أكثر استعمالاً ، فيقول : وإن شذّ الشيء في الاستعمال وقوي في القياس كان استعمال ما كثر استعماله أولى ، وإن لم ينته قياسه إلى ما انتهى إليه استعماله . من ذلك اللغةُ التميمية في « ما » هي أقوى قياساً وإن كانت الحجازية أسيرَ استعمالاً، وإنما كانت التميمية أقوى قياساً من حيث كانت عندهم كـ « هَلْ » ، في دخولها على الكلام مباشرةً ، كلٌ واحد من صدري الجملتين الفعل والمبتدأ ، كما أنّ « هـل » كذلك،إلا أنك إذا استعملت أنت شيئاً من ذلك فالوجه أن تحمله على ما كثر استعماله ، وهو اللغة الحجازية ، ألا ترى أن القرآن بهـا نزل ! وأيضاً فمتى رابك في الحجازية ريبٌ من تقديم خبر ، أو نقضٍ لنفي ، فزِعتَ إذ ذاك إلى التميمية ، فكأنك من الحجازية على حرد وإن كثرت في النظم والنثر »[2] .

وهذا الذي ذكره ابن جني عن « ما » التميمية وكونها أقوى قياساً من الحجازية يتعلق ببعض الفوارق الإعرابية بين هاتين اللهجتين العربيتين الشماليتين ، وهي فوارق ذات بال ، يحسن أن تجمع وينبه عليها : فمن المعلوم أنّ النحاة يقسمون ما « النافية » إلى حجازية وتميمية ، فالخبر في الحجازية منصوب ، بينما هو في التميمية مرفوع ، والقرآن في قوله « ما هذا بشراً »[3] جاء طبعاً على لهجة الحجاز . ويقرب من هذا الخلاف

---

١ هو أبو زيد الأنصاري ، سعيد بن أوس ، من أئمة اللغة والرواية المشاهير توفي سنة ٢١٥ هـ . كتابه (النوادر في اللغة) طبع في بيروت في المطبعة الكاثوليكية بتحقيق سعيد الخوري الشرتوني سنة ١٨٩٤ م .

٢ الخصائص ١/ ١٣٠ – ١٣١ .

٣ سورة يوسف ٣١ .